قواعد وآداب الجدل والمناظرة

عند الإمـام ابن حـزم الأندلسـي

عادل أمين حافظ(*)

١. مقدمة

الحمد لله رب العالمين المتفضلِ بهدايته ونِعَمِه، والصلاة والسلام على عبده ورسوله سيدنا مُحَمَّدٍ خاتم المرسَلين وإمام المهتدين وخير خلقه أجمعين، والرضا علي آل بيته وصحبه أجمعين، ثم أما بعد :

فإنه لا ينفك عصر من العصور عن وجود الطاعنين أو المتشككين في عقائد الشرع ومبادئه، مما يتطلب الوقوف بحزم في وجه ما يثيرونه من شبهات وافتراءات، وتفنيدها بالحجج والبراهين؛ لرد كيدهم ؛ إذ" لا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة، وقد تهزم العساكر الكبار والحجة الصحيحة لا تغلب أبدا، فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمة" (١).

وتلك مهمة جليلة تحقق هدفين في آن واحد: أحدهما جدال كلِّ متربص للإسلام وأهله، ودحض شبهاته. والآخر ترسيخ الحق الذي جاء به الشرع الحنيف في نفوس أتباعه، "وهذا متوجه إلى العلماء بالمعروف وبالمنكر؛ لأنه لا يجوز أن يدعو إلى الخير إلا من علمه، ولا يمكن أن يأمر بالمعروف إلا من عرفه، ولا يقدر على إنكار المنكر إلا من يميزه"(٢).

كذلك فإنه كثيرا ما تدفع الاختلافات في الرُؤى- حول مسائل الدين والدنيا – علماءَ الأمة وذوى الاختصاص في كل فن، إلى الدخول في مناظرات فيما بينهم، يهدف كل فريق منهم إلى البرهنة على صواب رأيه وصحة مذهبه، ومحاولة إقناع الآخرين بذلك، وهو أمر لا ضير فيه،

(*). مدرس بقسم الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة الفيوم.القاهرة

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ ص٢٨، مراجعة وتحقيق/ لجنة بإشراف الناشر، دار الحديث، القاهرة، ط٢/١٩٩٢م.

(٢) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٥ / ١١٨.

لاسيما إذا التزم كلٌّ منهم قواعدَ الجدل التي تحكم مساراته، وتوجه تلاقح الأفكار خلاله، فضلا عن التزام جملة من الآداب التي من شأنها الارتقاء بالنفس فوق مستوى الخلافات، والانحياز التام إلى الحق دون النظر إلى أية اعتبارات أخري، وهى سمة الجدل المحمود، والمناظرة الفاضلة كما سيتضح من خلال هذه الدراسة.

وفى المقابل لا ينفك هذا الجدال وتلك المناظرة، عن وجود فريق آخر يتشبث برأيه، ولا ينصاع إلى الحق بعد ظهوره والبرهنة عليه، يدفعه إلى ذلك نفسٌ مريضة وعقلٌ مشوش بالأكاذيب، فضلا عن عدم التزام بقواعد الجدل وآداب المناظرة، فعندئذ لا يلبس أن يتخذ - ذلك الفريق - من الجدل وسيلة لإطالة أمد الجدل والمناظرة، وهى سمة الجدل المذموم.

وسوف تكشف الدراسة – بعون الله تعالى – عن هذين النوعين من الجدل، وسمات كلٍّ منهما، من خلال إلقاء الضوء على قواعد وآداب الجدل والمناظرة التي ينبغي الالتزام بها، وذلك من خلال واحد من علماء الإسلام، اتخذ من الجدل منهجا له – في معظم مؤلفاته– لجدال من حاد عن الحق وتلبس بالباطل – من وجهة نظره - من المسلمين وغير المسلمين. وهو الإمام ابن حزم الأندلسي(ت٤٥٦هـ)، وقد قيل عن منهجه في الجدل: " وأولُ وصف لمنهاجه أنه في الجملة كان مخلصا في طلبه الحق ولا يبغي الغلب المجرد. ولا الاستطالة بلسانه أو قلمه. أو اجتياز المجالس والسيطرة عليها. إنما كان يقصد طلب الحق في نظره وتحرير القول في دين الله"(١).

وهو ما ستكشف عنه الدراسة من خلال وجود جوانب تطبيقية عند الإمام ابن حزم لتلك القواعد والآداب التي نظَّر لها، والتي كان لها – من وجهة نظره – الأثر المباشر في إنجاح مهمته، وهو ما يعني تقديم أنموذج تطبيقي يستفيد به كلُّ من يتصدر لجدال كل خارج على قواعد الإسلام وآدابه.

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة، ابن حزم: حياته وعصره- وآراؤه وفقهه، ص١٦٣، الناشر دار ابن حزم، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٢. التمهيد- الجدل: مفهومه وأقسامه.

أ. المسألة الأولى : مفهوم الجدل والمناظرة والفرق بينهما

أولا: مفهوم الجدل:

(أ) في اللغة:

وردت مادة (جدل، ومشتقاتها) في كتب اللغة - قديما وحديثا- على معان منها (١):

١ – الغلبة والظهور على الخصم: يقال جادَلْت الرجل فجَدَلته جَدْلًا أي غلبته في الجدل.

٢ - الإحكام والإتقان: يقال: جَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلًا إذا شددت فَتْله وفَتْلْته فَتْلًا مُحْكَمًا، ومنه قيل لزمام الناقة الجَدِيل.

٣ – اللدد في الخصومة والقدرة عليها: يقال: جَدِلَ الرجل (جَدَلًا) فهو (جَدِلٌ) من باب تعب إذا اشتدت خصومته. والجَدَل : اللَّدَدُ في الخُصومة والقدرةُ عليها، وقد جادله مجادلة وجِدالًا أي خاصمه.

٤ – قوى الحجة وبصير بمواضع الحق: يقَالُ : فُلانٌ جَدِل، قَوِيّ الْحُجَّةِ، وَثِيق الْحُجَّةِ، سَدِيد الْبُرْهَانِ، حَاضِر الدَّلِيلِ، حَسَن الاسْتِدْلالِ، بَصِير بِمَوَاضِع الْحَقّ، بَصِير بِاسْتِنْبَاطِ الأَدِلَّةِ، وَإِنَّهُ لَمِنْ مَشَاهِيرِ الْجَدَلِيِّينَ.

والملاحظ أنه لا تعارض بين هذه المعاني جميعا، لاسيما إذا كان الجدل في الحق وبالحق وللحق؛ فإن الإحكام والإتقان في اختيار الأدلة وحسن استخدامها على القضايا موضع الجدال والمناظرة، غالبا ما تؤدى إلى الغلبة والظهور على الخصم.

(ب) في الاصطلاح:

يعرف الجدل في الاصطلاح بأنه"دفع العبد خصمه عن إفساد قوله بحجة قاصدا به تصحيح كلامه"(٢). وعند الإمام ابن حزم:"الجدل والجدال إخبار كلِّ واحد من المختلفين بحجته أو بما

---

(١) انظر بتصرف: لسان العرب لابن منظور (مادة جدل)، م١/جـ٧/ص٥٦٩، تحقيق/عبد الله علي الكبير وآخرين، ط/دار المعارف، القاهرة. تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، جـ٢٨/ ص١٩١:١٩٧، تحقيق /د:محمود محمد الطناحي، سلسلة التراث العربي، تصدرها وزارة الإعلام بالكويت، ١٩٩٣م.المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري(كتاب الجيم)ص٦٠، ط/دار الحديث، القاهرة، ط١/٢٠٠٠هـ.نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد لإبراهيم اليازجي، جـ١/٣٠٦:٣٠٨.المعجم الوسيط جـ١/١٣٤.

(٢) زكريا الأنصاري، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، ص٧٣، تحقيق/ د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١١هـ.

يقدر أنه حجته، وقد يكون كلاهما مبطلا، وقد يكون أحدهما محقا والآخر مبطلا إما في لفظه، وإما في مراده، أو في كليهما، ولا سبيل أن يكونا معا محقين في ألفاظهما ومعانيهما"[(١)]. وهذا يعني أن الجدل يكون بين طرفين، يختلفان حول مسألة ما، فيتناظران حولها، يجتهد كلٌّ منهما في نصرة رأيه، بتقديم كل الأدلة التي تلزم ذلك.

ثانيًا: مفهوم المناظرة:

(أ) في اللغة:

وردت مادة(نظر) في اللغة على معان منها[(٢)]:

١- النظر إلى الشيء وتأمله: يقال: النَّظَرُ والنَّظَرَانُ بفتحتين تأمل الشيء بالعين وقد نَظَر إلى الشيء، ويقال للعين النَّاظِرةُ، والفعل منه يكون لازما،قال تعالى:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة٢٢-٢٣).

٢- الانتظار:يقال: نَظَرَهُ ينْظُرُهُ بالضم نَظَرًا، واسْتَنْظَرَهُ استمهله، وتَنَظَّرَهُ تَنَظُّرا انْتَظَرَهُ في مُهلة، والفعل منه يكون متعديا.

٣- التأخير: يقال: النَّظِرَةُ بكسر الظاء: التأْخير، وأَنْظَرَهُ: أَخرَّه.

٤- النظير والمثيل: يقال: نَظِيرُ الشيء مثله والنَّظِرُ بوزن التبر لغة فيه كالنديد والنِّد.

٥- المناظرة:يقال: ناظَرَهُ من المُنَاظَرَةِ.

(ب) في الاصطلاح:

المناظرة اصطلاحا،قيل فيها:"المناظرة تردد الكلام بين الشخصين يقصد كل منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه؛ ليظهر الحق"[(٣)].أو أنها:"النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب"[(٤)].

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ ص٤٥.

(٢) انظر بتصرف: مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي ، ص٦٨٨ تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت١٩٩٥م.

(٣) الآمدي، شرح الولدية في آداب البحث والمناظرة ص ٧ .

(٤) الجرجاني (علي بن محمد بن علي)، التعريفات، ص٢٩٨، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، ط/دار الريان للتراث، القاهرة، بدون تاريخ. أبو البقاء الكفومي، الكليات، ص١٣٦٩، تحقيق/عدنان درويش، محمد المصري، الناشر/ مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٩٨م.

الصلة بين الجدل والمناظرة:

إذا كان هناك من ذهب إلى أن الجدل دون مقام المناظرة[١]؛إذ إن كلا من المجادلين يريد حفظ مقاله وهدم مقال صاحبه، سواء كان حقا أو باطلا.أما المناظران فكل منهما يريد إظهار الحق[٢].

فهناك من رأى أنه لا فرق بينهما في المعنى، وإن كان ثمة فرق بينهما ففي اللغة؛ وذلك أن الجدل في اللغة مشتق من غير ما اشتُق منه النظر[٣].

وأما الإمام ابن حزم فالراجح عنده إعطاء الجدل معنى أوسع وأشمل، فهو يشمل تبادل النظر لطلب الحق، وهو الجدل المحمود. كما يشمل التلبيس والتمويه، وهو الجدل المذموم[٤].

وبناء عليه فإن الجدل والمناظرة كلاهما يكون بين طرفين، لكل واحد منهما رأى مغاير للآخر في قضية ما، فيتناظران حولها، فيقدم كل منهما الأدلة على صدق رأيه وإبطال رأى وأدلة الآخر. وقد يكون أحدُهما محقًّا والآخُر مبطلا، أو يكونان معا مبطلين.

ب. المسألة الثانية: أقسام الجدل

قد تبيَّن من خلال تعريف الجدل لغة واصطلاحا، أنه بمعنى المغالبة بهدف ظهور أحد المتجادلين على الآخر وتفنيد الدعاوى التي يتمسك بها. وعليه يمكن تقسيم الجدل إلى قسمين باعتبار الغاية التي يسعى إلى تحقيقها كل من المتجادلين وكذلك من خلال الأدلة والحجج التي يستندون إليها.

الأول: الجدل المحمود:

وهو ما كان يهدف صاحبه إلى إقرار الحق وتفنيد كل الدعاوى والشبهات التي تقف في طريقه، وذلك باستخدام أدلة وحجج يقينية؛ تكون ملزمة للغير بتصديقها والإقرار بها. والمناظرة

---

(١) انظر: كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى، ص١٦٧٠ .

(٢) انظر بتصرف: شرح الآمدي على الولدية في آداب البحث والمناظرة ص ٧ .

(٣) انظر:الكافية في الجدل للجوينى، ص١٧-١٨، وضع حواشيه:خليل المنصور، منشورات دار الكتب العلمية- بيروت، ط١/١٩٩٩م.النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير جـ١ / ص٧٠٧، تحقيق/ طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت ، ١٩٧٩م .

(٤) انظر بتصرف:ابن حزم:حياته وعصره- وآراؤه وفقهه للشيخ محمد أبو زهرة، ص١٦٠.

المحمودة التي تكون للتفقه واستخراج الدلائل على المسائل، أو ما كان على معنى الاجتهاد في طلب السلامة وإصابة العدل، مع ضرورة الالتزام بأدب الجدل والمناظرة.

ولعل ما يؤيد وجوده دليل العقل والنقل معا، وذلك على النحو التالي:

الدليل العقلي:

إن الإقرار بوجود المتربصين للإسلام وأهله فضلا عن وجود المبتدعة في كل فن أو علم،أمر لا يُنكر؛ ومن ثم وَجَبَ على المخلصين من علمائه التصدي بحزم لهؤلاء وأولئك وتفنيد دعاويهم ودحض شبهاتهم، خدمة للحق وأهله،إذ إن التخاذل عن القيام بذلك مدعاة لسيطرة الباطل وأهله،وإذا نكص العلماء عن القيام بدورهم فمن يَقُم بذلك سواهم ؟

يضاف إلى ذلك تسلح الأنبياء – صلوات الله تعالى عليهم – بالجدل في الدعوة إلي عبادة رب العالمين، لاسيما عندما تشتد الخصومة لهم ولدعوتهم، ويتمسك المعاندون بأدلة واهية. وعندئذ لا يمكن وصف ذلك الجدل إلا بالمحمود.

الدليل النقلي:

تختلف أساليب القرآن الكريم باختلاف الوقائع والأحوال، ومنها أسلوب الجدل بالتي هي أحسن لتأليف القلوب، وما يصاحب ذلك من آيات باهرات، تُبْهت الفاسق، وتكسر طوق المعاند، والمكابر، وتزيد المؤمن إيمانًا راسخًا.

وفي القرآن الكريم منهج مقارعة الحجة بالحجة، وشحذ همم العلماء من أجل عدم التراخي في مواجهة قوى الباطل، مع ضرورة التسلح بكل الأدلة والحجج التي من شأنها إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يلحظ ورود لفظ الجدل في تسعة وعشرين موضعا،كلها في سياق الذم إلا في أربعة مواضع:

الأول: قوله تعالى:﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل١٢٥).

الثاني:قوله تعالي: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(العنكبوت٤٦).

الثالث: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(المجادلة١).

الرابع: قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(هود٣٢).

ثانيًا: الجدل المذموم:

ويكون الجدل مذمومًا إذا قَصد به صاحبُه الملاحاة وتأجيج نار العداوة في النفوس، وإيغار القلوب، والتعنت، أو كانت مجادلته بغير علم أو بالباطل، أو قصد بالمناظرة رئاء الناس، والعجب، والخيلاء، وحب المدح والثناء، وإشاعة الذكر في البلدان، وطلب الرئاسة.

وعليه فإن ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية من ذم للجدال فهو محمول على هذه الوجوه، فقد ذم الله تعالى في القرآن الكريم ثلاثة أنواع من الجدل والمجادلة:

النوع الأول: ذم الجدل وصاحب المجادلة بالباطل ليدحض به الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ (الكهف: ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (غافر: ٥).

النوع الثاني: ذم الجدل والمجادلة بغير علم ولا برهان، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠)، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (الحج: ٨)،وقوله تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ (الحج: ٣)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر: ٥٦)،وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر:٣٥).

النوع الثالث: ذم الجدل والمجادلة في الحق بعد ظهوره، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾(الأنفال: ٦).

وأما في السنة النبوية الشريفة وما ورد فيها من ذمٍ للجدل والنهى عنه، كقول النبي ﷺ : (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾(الزخرف:٥٨)[(١)]، فلا ينبغي أن يحمل النهي على عمومه في كل مجادل،بل هو خاص فيمن يجادل بغير الحق ولغير الحق.

وقد أشار علماء الإسلام – عند تقسيم الجدل - إلى ذلك الجدال المذموم بأنواعه الثلاثة الوارد ذكرها في القرآن الكريم،وكذا في السنة النبوية، يؤكد ذلك قولُ الإمام ابن حزم:"وجه الجدال المذموم فيمن يحاج بعد ظهور الحق، وهذه صفة المعاند للحق الآبي من قبول الحجة بعد ظهورها، وهذا مذموم عند كل ذي عقل"[(٢)].

كذلك يشير الإمام أبو المعالي الجوينى إلي المعني نفسه قائلا:" فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليُلبِسَ الحقَ بالباطل، أو لما لا يطلب به تعرُّف ولا تقرُّب؛ أو للمماراة وطلب الجاه والتقدم إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها" [(٣)].

وبناء علي ما سبق يتبين لنا أن الجدل منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، وأن وصفه بهذا أو ذاك يتوقف في المقام الأول علي الهدف المنشود من ورائه، والأدلة المستخدمة لتحقيق ذلك الهدف، فإن كان الهدف منه الانتصارَ لقضية صادقة، واستُخدِمَت الأدلة والبراهين علي ذلك، سواء اقتنع بها الخصم أم لا، فهو جدل محمود. وما كان بخلاف ذلك، فهو جدل مذموم.

٣. المبحث الأول:مكانة الجدل في حياة الإمام ابن حزم الأندلسي

ليس غريبا أن ينشط الجدل في بلدان الإسلام الكبرى كالعراق والشام ومصر بين علماء المسلمين من جهة وطوائف من الدهرية والثنوية، فضلا عن النصارى من جهة أخرى، يدفعهم إلي ذلك روح الإسلام السمحة التي وفَّرت الأمن والأمان لكل من عاش في كنفه، وكذا الرغبة الملحة من

---

(١) الإمام الترمذي، الجامع الصحيح (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، باب سورة الزخرف)جـ٥ / ٣٧٨، تحقيق:أ/ أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١ / ص٢١.

(٣) الإمام الجوينى، الكافية في الجدل، ص١٩.

جانب علماء الإسلام في تصحيح ما أفسدته خيالات ووساوس هؤلاء وأولئك في مسائل العقيدة، لاسيما عقيدة الإلوهية. وقد تسابقت إلي ذلك الفرق إسلامية، علي اختلاف مذاهبهم، تجمعهم روح وثّابة لنصرة العقيدة الإسلامية؛ إذ حمل علماؤها – كل حسب منهجه – لواءَ الجدل في مواجهة قوى الباطل، علي الرغم من وجود مَن بالغ في الدور الذي قامت به فرقته إلي الحد الذي صرَّح بأنها دون غيرها مَن انفرد بذلك.يؤكده أحدُ علماء المعتزلة قائلا:"وهل أحد علي الأرض ردَّ علي أهل الدهر...سوى المعتزلة كإبراهيم(١) وأبي الهذيل(٢) ومعمَّر(٣) والأسواري(٤) وأشباههم؟وهل يعرف أحد صحَّحَ التوحيد وثبَّتَ القديمَ جل ذكره واحدا في الحقيقة واحتج لذلك بالحجج الواضحة وألَّف فيه الكتب ورد فيه علي أصناف الملحدين من الدهرية والثنوية سواهم؟"(٥).وإن كان هذا القول يبخس حق العلماء من الفرق الأخرى التي لها نصيب في الرد

---

(١) إبراهيم بن سيار النَّظَّام أحد فرسان أهل النظر والكلام علي مذهب المعتزلة(ت٢٣١هـ).د/محمد عبد الهادي أبو ريدة، من شيوخ المعتزلة:إبراهيم بن سيار النظام، وآراؤه الكلامية الفلسفية، ص١:٥، دار النديم، القاهرة، ط٢/١٩٨٩م.

(٢) محمد بن الهذيل بن عبيد الله بن مكحول أبو الهذيل العلاف مولى عبد القيس شيخ المعتزلة، سنة خمس وثلاثين ومائة، ومات سنة خمس وثلاثين ومائتين، فعمر مائة عام.امتدحه المأمون قائلا:أظلَّ أبو الهذيل علي الكلام ــ كإظلال الغمام علي الأنام. انظر:تاريخ بغداد للخطيب البغدادي(أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي)جـ٣ / ٣٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت.المنية والأمل في شرح الملل والنحل لأحمد بن يحيى بن المرتضى اليماني، ص٣٨، حقيق/د:محمد جواد مشكور، الناشر مؤسسة الكتاب الثقافية، دمشق١٩٨٨م.الوافي بالوفيات للصفدي، جـ٢ / ١٤٩.

(٣) معمر بن عباد السلمي بالتشديد معتزلي من أهل البصرة ثم سكن بغداد وناظر النظام مات سنة خمس عشرة ومائتين، من طبقة النظام وهي الطبقة السادسة من طبقات شيوخ المعتزلة.انظر: لسان الميزان لابن حجر، جـ٦ / ٧١، دائرة المعرف النظامية، الهند، الناشر/ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣/ ١٩٨٦م. المنية والأمل في شرح الملل والنحل لأحمد بن يحيى بن المرتضى اليماني، ص٣٨.

(٤) عمرو بن فائد، أبو علي الأسواري التميمي: معتزلي، من أهل البصرة، من الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة.قال ابن حجر: مات بعد المائتين بيسير.انظر: المنية والأمل في شرح الملل والنحل لأحمد بن يحيى بن المرتضى اليماني، ص٣٨.الأعلام للزركلي، جـ٥ / ٨٣، الناشر/دار العلم للملايين، ط١٥/٢٠٠٢ م .

(٥) الخياط المعتزلي، كتاب الانتصار، ص١٧، تحقيق/د:نِيبَرج، ط/دار قابس، بيروت، ١٩٨٦م.وانظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين محمد الملطي ص ٣٢، تحقيق/د:محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١/١٩٩٢.يرفض ابن حزم ادعاءهم ذلك، بل ويتعجب منه قائلا : "إن فيهم لعجبا إذ يقولون إن الله تعالى لم يعط أحدا من خلقه إلا ما أعطى سائرهم فهلا إن كانوا صادقين ساوى جميعهم إبراهيم النظام وأبا لهذيل العلاف وبشر بن المعتمر والجبائي في دقة نظرهم وقوتهم على الجدال إذ كلهم فيما منحهم الله عز و جل من ذلك سواء فإذ لا شك في عجزهم عن بلوغ ذلك". الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٣ / ٧٢.

علي كل المخالفين لعقيدة الإسلام، إلا أنه يتضمن ما نود تأكيده وهو نشاط حركة الجدل في البيئة الإسلامية،لاسيما وقد بلغت الذروة في الأندلس لكثرة اليهود والنصارى فيها، لاسيما وقد دأب اليهود علي إثارة الشبهات حول الدين الإسلامي، وإلقاء العقبات أمام أتباعه لأداء شعائره.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ وغيرها عددًا من المناظرات التي جرت بين علماء المسلمين من جانب وعلماء اليهود والنصارى من جانب آخر.منها ما كان في صورة رسائل جدلية قصيرة: كالرد على اليهود للرقيلي. والرد على النصارى لأبي القاسم العتبى. ومنها ما كان من الكتب الطوال التي كتبها علماء الإسلام في الأندلس ككتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام للإمام القرطبي.وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الأندلسي،وهو من الكتب التي تمثل نموذجا صادقا لتلك المناظرات،ومدى إخلاص علماء الإسلام لنصرة الحق وأهله.

وإن الناظر في شخصية الإمام ابن حزم الجدلية يجد أنه قد توافرت على تكوينها مجموعة من المؤثرات، يأتي في مقدمتها علوم الأوائل لاسيما المنطق الأرسطي منها، الذي وقف من خلاله على طرق البرهان، فأفاد منها في مناظراته وحياته الجدلية؛ مما تنامي لديه "الشعور بأن العلوم الفلسفية لا تنافي الشريعة، بل إن المنطق منها يمكن خاصة يمكن أن يتخذ معيارًا لتقويم الآراء الشريعة وتصحيحها، وكان اتجاهه إلى مجادلة أهل المذاهب والنحل الأخرى يفرض عليه أن يتدرع بقوة منطقية في المناظرة والجدل. وهاتان الغياتان كانتا من أبرز العوامل التي حدت به إلى التأليف في المنطق ليثبت عدم التنافي بينه وبين الشريعة وليعزز به موقفه العقلي إزاء الخصوم ويضع فيه القواعد الصحيحة للجدل والمناظرة "(١).

يضاف إلى ذلك وقوفه على مختلف الأساليب النقلية من الكتاب والسنة في جدال قُوَى الباطل، وهو ما أكسبه ملكة الجدال والمناظرة لكل المخالفين له في العقيدة والمذهب، يؤكد ذلك تراثه الحافل بمناقشاته الجدلية مع اليهود والنصارى من جانب، ومناظراته المتنوعة من فقهية

---

(١) إحسان عباس، مقدمة تحقيق رسالة التقريب لحد المنطق(ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤/ص٣٤.

وكلامية من جانب آخر؛ كما يشهد بذلك طائفةٌ من مؤرخي الفكر الإسلامي الذين أدرجوا اسمه في عداد أهل الجدل.

وأخيرا ما حباه الله تعالى بذكاء وذاكرة نادرين، شهد له بذلك كثير من العلماء الذين بهرتهم تواليفه العديدة والمتنوعة، فكانت مثالا صادقا علي ذلك، يشير إليه قولُ أحدهم:" كان ابنُ حزم أجمعَ أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام،وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، ومعرفته بالسنن والآثار والأخبار"(١). وهو ما يؤكده أحد تلامذته قائلا:" كان أبو محمد حافظا للحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة، عاملا بعلمه. ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل ما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم"(٢).

شهادة المؤرخين له:

حظي الإمام ابن حزم بثقة كل من أرَّخ لحياته وفكره- قديما وحديثا - فكان ذلك اعتراف منهم بتفوقه في ميادين العلم، يشهد له بذلك غزارة إنتاجه، فقيل عنه:" كان أبو محمدٍ حامل فنونٍ من حديثٍ وفقهٍ وجدلٍ ونسبٍ وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة "(٣).

وفي المفاضلة بينه وبين غيره لم ير مثيلا له في الذكاء والحفظ، زهد في الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم ورآها فوق كل رتبة، قيل عنه: إن كل العلماء عيال عليه(٤).

نحن إذا أمام شخص، كما يقول أحد علمائنا المعاصرين:"لم يكن عاديا في إطلاعه واستيعابه وحفظه، وإنما كان شخصية فذة في مقدرته علي الفهم، والتعلم والتحصيل"(٥).

---

(١) انظر: قول صاعد:تذكرة الحفاظ للذهبي، م٢/ جـ٣ /ص ٢٢٨، تحقيق/الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٨م.

(٢) انظر قول تلميذه الحميدي في تذكرة الحفاظ للذهبي، م٢/ جـ٣ / ص٢٢٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـ٢/ص٣٢.

(٤) انظر بتصرف:نفح الطيب للمقري التلمساني، جـ٣ / ص١٩٢، ٢٣٨ تحقيق د/إحسان عباس، دار صادر – بيروت ١٩٦٨م.

(٥) د/زكريا إبراهيم، ابن حزم الأندلسي(سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٦)ص٧٩، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ط١/١٩٦٦م.

وهو ما كان يدركه تماما مفاخرا بما حباه الله تعالى به من ملكات فاقت أقرانه، يؤكد ذلك شعره الذي يعكس إحساسَه وافتخارَه بذاته ؛ إذ يقول (١):

أنـــا الشمس في جو العلوم منـــيرة ... ولكن عيـــبي أن مطلـــعي الغـــرب
ولو أنني من جانـــب الشرق طالعٌ ... لجـــد علـــى ما ضاع من ذكري النهب

ولاشك أن شعره وإن كان يعكس افتخاره بنفسه، إلا أننا نلمس فيه – أيضا – إحساسا بالألم والحسرة على عدم تقدير الناس له، لا لشيء سوى بعده عن مركز الخلافة جهة الشرق، حيث ازدهار العلم ومدى الحفاوة التي كان يحظى بها العلماء هناك من قبل الخلفاء والأمراء ورجال الدولة. ولعل ذلك يكون قد ترك أثرا في نفسه؛ فراح" يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه، وبذلٍ بأسراره، واستنادٍ على العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران١٨٧) فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريضٍ ولا برقه بتدريجٍ، بل يصك معارضه صك الجندل، وينشقه متلقمه إنشاق الخردل، فنفر عنه القلوب، وتوقع به الندوب، حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فمالوا على بغضه ورد أقواله، فأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه"(٢).

وقد انعكس العداء لشخصه على مؤلفاته التي قيل عنها إنها بلغت الأربعمائة؛ فأحرقت بإشبيلية، ولكن ذلك لم يضعف الإمام ابن حزم، ولم يثنه عما عزم عليه من جدال مخالفيه، بل زاده تمسكا بأفكاره، وإصرارا على جدال مخالفيه، فأنشد متحديا منتقديه(٣):

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقـــوا ... الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركايبي ... وينـــزل إن أنـــزل ويدفـــن في قـــبري

كما يشير إلى بقاء أفكاره بينهم وإن ارتحل عنهم بجسده، وهو ما يؤكد ثقته التامة بها، ولعل التعبير عنها بروحه ما يدل على ثباته عليها دون تردد، فيقول:

لئن أصبحت مرتحلًا بشخصي ... فروحـــي عنـــدكـــم أبـــدًا مقـــيـــم

---

(١) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م٤/ص١١٤، تحقيق/محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١/١٩٧٧م.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، جـــ٢/ص٣٢.

(٣) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة م٤/ص١١٦.

مناظرة أهل البدع

يعد جدال أهل الباطل ومثيري الفتن في كل زمان ومكان جهادا باللسان والبيان، وهو قسيم الجهاد بالسلاح والسنان، وقد وعد الله تعالى القائمين عليه بالنصر، لاسيما إذا التزم صاحبه تقوى الله، وكان له من العلم ما يؤهله لخوض غمار تلك المعركة بالحجة ؛ قال تعالى:﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(غافر:٥١)،وقال تعالى:﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٤٠).

وفي السنة النبوية جاء الأمر بجهاد المشركين بكل ما أوتي المسلمون من قوة،ومنها قوة البيان وسلطان الحجة، وهو ما يؤكده قولُ النبيﷺ:(جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[١].يشير إلي ذلك ابنُ حزم في تعليقه على هذا الحديث قائلا:"وهذا حديث في غاية الصحة وفيه الأمر بالمناظرة وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله"[٢]. وليس هذا فحسب بل وصل به الحال إلى إعلاء شأن الجهاد بالكلمة على الجهاد بالسيف مستشهدا علي ذلك بقوله تعالى:﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء١٨). فيقول معلقا على الآية الكريمة:" ولا شك في أن هذا إنما هو بالحجة؛ لأن السيف مرة لنا ومرة علينا، وليس كذلك البرهان، بل هو لنا أبدا، ودامغ لقول مخالفينا، ومزهق له أبدا. ورب قوة باليد قد دمغت بالباطل حقا كثيرا فأزهقته... وقد قتل أنبياء كثير وما غلبت حجتهم قط"[٣].

دوافع الجدال والمناظرة:

لاشك أن الدافع إلى الجدل والمناظرة يتمثل في عدد من الأمور من بينها:

١- كونه وسيلة من وسائل الدعوة، يؤكده قولُ ابن حزم:" من جادل في طلب حق له فقد دعا إلى سبيل ربه تعالى، وسعى في إظهار الحق والمنع من الباطل، وهكذا كل من جادل في حق لغيره أو لله تعالى"[٤].

---

(١) سنن النسائي الكبرى(كتاب الجهاد، باب جوب الجهاد)، جـ٣/ص٦، تحقيق/د.عبد الغفار سليمان البنداري،سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩١م.

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١ /ص٢٩.

(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١ /ص٢٨.

(٤) ابن حزم، المحلى، جـ٧/ص١٩٦، تحقيق/محمد منير الدمشقي، ط/إدارة الطباعة المنيرية بمصر، ط١/١٣٥٢هـ.

٢- الذَّبِّ عن حياض الدين وصيانة العقيدة في نفوس أتباعه- لاسيما العوام - من شبهات وتلبيسات أعدائه.

٣-صيانة المجتمع وأهله من شرور البدعة والمبتدعة، لاسيما البدع التي تلقى قبولا واستحسانا لدى بعض الناس،ومحاولة صرف المبتدعة وأهل الباطل إلى الحق، وتلك مسئولية تقع علي عاتق العلماء تجاه مجتمعاتهم.يؤكد ذلك ابن حزم قائلا:"فُرِضَ علينا إتباعُ المناظرة؛ لنصرف أهل الباطل إلى الحق وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون" (١).

وبناء على ما سبق تتضح أهمية الجدال بالحجة لصيانة الدين والدنيا من دعاوي قوى الباطل. وأنه إن كان ثمة نهى عنه ورد بلسان الشرع، فلم يكن مطلقا، بل هو مقيد بأمرين:

الأول:إذا كان المجادلُ ضعيفَ العلم بالحجة وجواب الشبهة، فيكون فسادُه أكثرَ من إصلاحه؛ وعندئذ يتعدى ضررُه لغيره.

الثاني:إذا كان الجدال للمراء(٢). ولأجل صرف الناس عنه وحماية المجتمع من أصحابه، جاء الشرع بصيغتي الترهيب والترغيب: فالترهيب بما ينتظر صاحبه من عذاب الله تعالى، ورد فيه قولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الحج، الآيتان:٨-٩). وأما الترغيب فقد وعد النبي ﷺ تارك المراء ببيت في الجنة؛ قال ﷺ:(أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)(٣).

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١ /ص٢٤.

(٢) يطلق المراء في لغة العرب على معان عدة، منها:

١ - الشك، تقول: امترى في الشيء: تعني شك فيه، ومنه قوله تعالى:﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (البقرة ١٤٧).

٢ - مخالفة الغير والتَّلوِّي عليه أو عدم الوضوح معه، تقول: مارى فلان فلانا، أي خالفه وتلوى عليه، أو لم يكن واضحا معه.

٣ - المناظرة والجدل، تقول: مارى فلان فلانا، أي ناظره وجادله، ومنه قوله تعالى:﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ (الكهف: ٢٢).

٤ - استخراج الشيء من مكمنه، تقول:امترى الشيء، أي استخرجه من مكمنه، وامترى الناقة، أي حلبها واستخرج اللبن من ضرعها.

٥- التزين والتجمل، تقول: تمرى بالشيء، أي تجمل وتزين .انظر: لسان العرب لابن منظور (مادة: مرا)جـ١٥/٢٧٥.

(٣) السنن لأبي داوود(كتاب الأدب، باب في حسن الخلق)جـ٢ / ٦٦٨، تحقيق/محمد محي الدين عبد الحميد، ط/دار الفكر، بيروت.

يؤكد ذلك قولُ الإمام ابن حزم:"والمذموم وجهان: أحدهما من جادل بغير علم. والثاني من جادل ناصرا للباطل بشغب وتمويه بعد ظهور الحق إليه...وهؤلاء المذمومون هم الذين قال الله تعالى فيهم:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾(غافر٦٩)، وقوله تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾(الحج٣)...وقوله تعالى:﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾(غافر،الآيتان:٤-٥). فبَيَّن تعالى كما ترى أن الجدال المحرم هو الجدال الذي يجادل به لينصر الباطل ويبطل الحق بغير علم"(١).

وخلاصة القول أن النهى عن الجدل خاص من جانب بكل مَنْ لا يلتزم قواعده ويتحلى بآدابه.ومن جانب آخر خاص بكل من لا يكون في مجادلته مصلحةٌ راجحة، أو فيه مفسدة راجحة، وهى أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال. وأما جنس المجادلة والمناظرة ؛ ففيه محمود ومذموم، ومفسدة ومصلحة، وحق وباطل.وأن موقف الشرع من أهل البدع موقِفٌ مبني على قصد جلب المصالح الشرعية ودرء المفاسد، وليس الهجر هو المنهج الثابت له في جميع الأحوال، وهو ما التزمه السلف الصالح من علماء الأمة.يؤكد ذلك الإمام ابنُ تيمية بقوله:"وأما جنس النظر والمناظرة، فهذا لم ينهَ عنه السلفُ مطلقًا، بل هذا - إنْ كان حقًا - يكون مأمورًا به تارة، ومنهيًا عنه أخرى، كغيره من أنواع الكلام الصدق، فقد يُنهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع، أو الذي يضر المستمع، وعن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء، فلا تفيد علمًا ولا دينًا "(٢).

الحاجة إلى الجدل المحمود:

يصرح الإمام ابن حزم بأن الحاجة إلى الجدل فرضتها أمور منها:فساد الرأي وانتشار الضلال بين نفر من المسلمين ممن يكونون عرضة لذوى الأهواء الفاسدة والأفكار الضالة، وهو ما استدعى تدخلا من العلماء المخلصين لدحض افتراءات هؤلاء وصيانة الأمة من ضلالاتهم ورأب الصدع

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١ /ص٢٦-٢٧.

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، جـ٧/١٨٤ تحقيق/د:محمد رشاد سالم، ط/جامعة الإمام محمد بن سعود بالسعودية، ط٢/١٩٩١م .

الذي أحدثوه في الأمة الإسلامية. ومن هنا رأيناه يكشف عن السبب والغاية الذين ألجآه إلى الدخول في جدال مثيري الفتن والضلال من البيئة الإسلامية وخارجها، مستدلا على صحة مسعاه من الكتاب والسنة؛ إذ يقول:" فإذا كان ذلك كذلك، فلولا ما فشا من ضلالة من ضل بهذا السؤال الفاسد لكان الإعراض عن الكلام فيه واجبًا، والإقبال على سؤال ما يلزم المرء أولى، ولكن فرض النصيحة للمسلمين واجب، فلزمنا بيان ما سألوا عنه من ذلك لوجهين :

أحدهما: تبيين أن هذا السؤال الذي موَّهُوا به، وإنكار هذا المنكر الذي شغَّبُوا به، قال الله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ﴾(آل عمران آية ١٠٤).

والوجه الثاني : تحذير مَنْ عسى أن يجوز عليه هذا الباطل، فلعله ينجو من ضلالته وحيرته، قال رسول الله ﷺ : (الدين النصيحة، قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[١] أو كما قال عليه السلام" [٢]. وتلك صفة العالم المخلص لدينه الصادق مع نفسه وغيره، الذي ألجأه الدفاع عن الدين إلى التسلح بسلاح الجدل، وقد قيل في بيان صفته:"صفة هذا العالم العاقل الذي فقهه الله في الدين، ونفعه بالعلم، أن لا يجادل، ولا يماري، ولا يغالب بالعلم إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي، وذلك يحتاج في وقت من الأوقات إلى مناظرة أحد من أهل الزيغ؛ ليدفع بحقه باطلَ مَن حَالَفَ الحقّ، وخرج عن جماعة المسلمين، فتكون غلبته لأهل الزيغ تعود بركة على المسلمين "[٣].

أدلة ابن حزم على مشروعية الجدل لاسيما الجدل المحمود:

توجه الإمام ابن حزم إلى الطائفة التي ذمت الجدل والمجادلين واصفا إياهم بالجهل وعدم التمييز بين الجدل المحمود الذي حض عليه الشرع الحنيف والتزمه الأجلاء من كبار الصحابة والتابعين وغيرهم من علمائه المخلصين، وبين الجدال المذموم الذي ذمه العقل والنقل.وعاب

---

(١) الحديث(قالﷺ الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) الإمام مسلم، صحيح مسلم(باب بيان أن الدين النصيحة)، جـ١/ص٧٤، تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) ابن حزم، الرسالة الباهرة، ص٤.

(٣) الآجري، أخلاق العلماء ، ص ٣٧، قدم له وعلق عليه/ممدوح حسن محمد، الناشر/مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

عليهم قصور النظر وتعميم الحكم حينما توقفوا فقط عند أدلة الشرع التي تحرم الجدل المذموم؛ فجعلوها عامة للجدل بنوعيه المحمود والمذموم (١).

وقد استند في ذلك إلى أدلة عقلية وأخرى نقلية، تثبت من جانب مشروعية الجدل لاسيما المحمود منه، ومن جانب آخر تثبت خطأ تلك الطائفة.والأدلة هي:

أولا : الأدلة العقلية:

(أ) دليل مبنى على صورة قياس شرطي منفصل، قسمته محصورة في أربعة أقسام:وهي أن طريق معرفة الحق إما في التقليد، وإما في الإيهام، وإما في ترك طلبه، وإما في الجدال. فإذا بطلت الأقسام الثلاثة الأُوَل، تعيَّن الرابع وهو الجدل، ولاشك أنه جدل محمود مادام طريقا لمعرفة الحق.

يؤكد ذلك قولُ الإمام ابن حزم:"ومثال ذلك أن يقول أحد الخصمين: الجدال مكروه، فيقول الآخر: فإذا هو مكروه فبأي شيء يوصل عندك إلى معرفة الحق مما اختلف فيه مَن هو عندك رضا من أهل ملتك هات ما عندك ودع الجدال الآن جانبا. وهذا يرجع إلى ما قلناه قبل من وجود أقسام تبطل كلها إلا واحدا، فيصح ذلك الواحد، فإن الخصم حينئذ لابد له من أن يذكر التقليد أو الإيهام أو ترك طلب الحق. وكل هذه الوجوه باطل فاسد فإذا بطلت صَحَّ الجدال."(٢).

(ب) دليل مبني على أمر مسلَّم به عند الجميع، وهو أن كل دعوى بلا بينة أو حجة، فهي باطلة.

ممالا شك فيه أن كل دعوى بلا بينة أو حجة، هي دعوى باطلة، يتصف أصحابها بالجهل وقلب الحقائق، يؤكد ذلك أمران:

الأول:ادعاؤهم أن الدين الإسلامي لا يحض علي التسلح بسلاح العقل، وأن قضاياه لا تؤخذ بالبرهان. وهو إفك وافتراء، ينم عن نفوس مريضة دأبت علي قلب الحقائق، وقد تعدى إفكهم فكان عونا لكل طاعن في الدين. يصف الإمام ابن حزم حال هؤلاء قائلا:" أتوا بالأفيكة التي تقشعر منها الذوائب وهي أن أطلقوا أن الدين لا يؤخذ بحجة فأقروا عيون الملحدين، وشهدوا أن

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/٢١:٢٣.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ ص٣٣١-٣٣٢ .

الدين لا يثبت إلا بالدعاوي والغلبة.وهذا خلاف قوله عز وجل: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة ١١١).وقوله تعالى:﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن٣٣).هذا قول الله عزوجل"(١).

الثانية: إصدار الدعاوى بلا بينة أو دليل.وهو أمر يشين صاحبه، ويصمه بالسفه، فيصير أهلا لازدراء الآخرين. ويحمل الإمام ابن حزم على هؤلاء ذمهم لعلوم الأوائل وكتبهم دونما اطلاع عليها؛ فيأتى علي دعواهم مفندا إياها، من خلال حديثه مع أحد هؤلاء قائلا له:" أخبرنا عن هذه الكتب من المنطق وإقليدس والمجسطي: أطالعتها أيها الهاذر أم لم تطالعها؟ فإن كنت طالعتها، فلم تنكر على من طالعها كما طالعتها أنت؟ وهلَّا أنكرت ذلك على نفسك؟ وأخبرنا ما الإلحاد الذي وجدتَ فيها، إن كنت وقفت على مواضعه منها؟ وإن كنت لم تطالعها، فكيف تنكر ما لا يعرف؟ أما سمعت قول الله عز وجل:﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾(آل عمران: ٦٦)وقوله تعالى:﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (النور١٥)...واعلم أن صورتك عندنا أنك جمعت ثلاثة أشياء: قلة الدين، وضعف العقل، وقلة التمييز والتحصيل"(٢).

وخلاصة القول: فإنه تسقط – بأدلة العقول الصريحة - كل الدعاوي المناهضة لمنهج الجدل، لاسيما المحمود منه؛ فضلا عن افتقار أصحابها إلى ما يؤيد ما ذهبوا إليه، وأنه إن كانت ليدهم ثمة أدلة، فهي ترتد عليهم ؛ لتثبت فساد تلك الدعاوي. يؤكده قولُ الإمام ابن حزم:"وبالجملة فلا أضعف ممَّن يروم إبطالَ الجدال بالجدال، ويريد هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج، ويتكلف فساد المناظرة بالمناظرة؛ لأنه مقر على نفسه أنه يأتي بالباطل؛ لأن حجته هي بعض الحجج التي يريد إبطال جملتها، وهذه طريق لا يركبها إلا جاهل ضعيف أو معاند سخيف"(٣).

ثانيا: الأدلة النقلية:

(أ) القران الكريم:لقد وقف الإمام ابن حزم من خلال القرآن الكريم على الكثير من الآيات

---

(١) ابن حزم، الفِصَل في الملل والأهواء والنحل، جـ١/ص١٨٧.

(٢) ابن حزم، رسالة في الرد علي الهاتف من بعد(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٣ / ١٢٢، الفِصَل، جـ١/ص١٨٧.

(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٣٠.

التي تحض على الجدال والمناظرة لاسيما ما كان منه لنصرة الحق، مما يبرهن علي خطأ النفاة بإطلاق للجدل والمناظرة، وخروجهم على منطق العقل والنقل، لاسيما وقد أكدت الآيات أن الجدل والمناظرة منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى(١). يؤكد ذلك قولُه:"قال عز و جل :﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام٨٣). وقد أمرنا تعالى في نص القرآن بإتباع ملة إبراهيم ﷺ وخبرنا تعالى أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة، فمرة للملك، ومرة لقومه، والاستدلال كما أخبرنا تعالى عنه. ففرض علينا إتباع المناظرة؛ لنصرف أهل الباطل إلى الحق وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون. قال الله عز و جل: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران٦٨) فنحن المتبعون لإبراهيم ﷺ في المحاجة والمناظرة فنحن أولى الناس به وسائر الناس مأمورون بذلك. قال الله تعالى :﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(آل عمران٩٥) ومن ملته المناظرة كما ذكرنا فمن نهى عن المناظرة والحجة فليعلم أنه عاص لله عز و جل ومخالف لملة إبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما- "(٢).

ويقول متعجبا ممن نهى عن الجدل:"فليت شعري من نهاهم عنه والله عز وجل يقول في كتابه المنزل على نبيه المرسل صلى الله عليه وسلم. وجادلهم بالتي هي أحسن. وأخبر تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا. يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا. وقد نص تعالى في غير موضع من كتابه على أصول البراهين وقد نبهنا عليها في غير ما موضع من كتابنا "(٣).

ولم يكتف ابن حزم بسرد كل الآيات التي تحض على الجدال في الحق ومقاومة قوى الشر، بل يتتبع – كذلك – الآيات التي يرى أنها ترينا كيفية جدال ومناظرة الباطل وأهله ودحض وتفنيد شبهاتهم وافترائتهم، فيقول:" وقد علمنا عز و جل الحجة على الدهرية في قوله تعالى:﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد٨)، وقوله تعالى ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾(الجن٢٨)، وعلمنا الحجة على

---

(١) انظر: دعوة الرسل إلي الله تعالي لمحمد أحمد العدوي، ص٣٧٨:٣٨٣، دار المعرفة، بيروت١٩٩٧م.

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٤، ويذهب ابن عبد البر إلي تأكيد المعنى نفسه، انظر:جامع بيان العلم وفضله، ص١٩٣.

(٣) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، جـ١/ص١٨٧.

الثنوية بقوله تعالى:﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء٢٢)، وعلى النصارى وعلى جميع الملل. وقد بينا ذلك في كتابنا المرسوم بكتاب الفصل ورأينا فيه عظيم ما أفادنا الله تعالى في ذلك من الحكمة والعلم بالمحاجة وإظهار البرهان بغاية الإيجاز والاختصار"(١).

(ب) السنة النبوية الشريفة: استند ابن حزم في ذلك إلى ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي ﷺ :فحج آدم موسى فحج آدم موسى)(٢).

فيقول معلقا على الحديث:" فموسى ﷺ وضع الملامة في غير موضعها، فصار محجوجا؛ وذلك لأنه لام آدم ﷺ على أمر لم يفعله، وهو خروج الناس من الجنة، وإنما هو فعل الله عز وجل، ولو أن موسى لام آدم على خطيئته الموجبة لذلك لكان واضعا للملامة موضعها، ولكان آدم محجوجا وليس أحد ملوما إلا على ما يفعله لا على ما تولد من فعله، ولا مما فعله غيره. والكافر إنما يلام على الفعل، لا على دخول النار، والقاتل إنما يلام على فعله، لا على موت مقتوله ولا على أخذ القصاص منه. فعلمنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث كما ترى كيف نسأل عند المحاجة، وبين لنا ﷺ أن المحاجة جائزة" (٣). وأن ما جاء به النبي ﷺ "في ذلك الكفاية والغناء عن قول كل قائل بعده"(٤).

(ج)إجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم: سار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على هدى نبيهم ﷺ، فكانوا أول من التزم بنهجه ﷺ في إحقاق الحق وإبطال الباطل. متخذين من الجدال المحمود وسيلة لردع المبتدعة وتفنيد شبهاتهم.وقد استند ابن حزم إلى جدالهم مع كل من شذ عن نهج الشرع الحنيف؛ لتأكيد مشروعية الجدال، فيقول:"وقد تحاج المهاجرون والأنصار وسائر الصحابة رضوان الله عليهم، وحاج ابن عباس الخوارج بأمر علي ﷺ وما أنكر قط أحد من الصحابة الجدال في طلب الحق فلا معنى لقول لمن جاء بعدهم"(٥).

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٨.

(٢) صحيح مسلم(٤٦-كتاب القدر، ٢-باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام)، جـ٤ / ص ٢٠٤٢.

(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٩.

(٤) ابن حزم، الفصل، جـ١/ص١٨٧، الناشر/مكتبة الخانجي - القاهرة.

(٥) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١ /ص ٣٠، الفصل، جـ١/ص ١٨٧.

كما يورد ابن عبد البر الأمثلة على اقتداء السلف الصالح من الصحابة والتابعين وعلماء الأمة بذلك قائلًا:"وتجادل أصحاب رسول الله ﷺ يوم السقيفة وتدافعوا وتقرروا وتناظروا حتى صار الحق في أهله، وتناظروا بعد مبايعة أبي بكر في أهل الردة...وناظر علي ﷺ الخوارج حتى انصرفوا، وناظرهم ابن عباس ﷺ...وأما تناظر العلماء وتجادلهم في مسائل الأحكام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أكثر من أن تحصى"(١).

الجدال الذي يدعو إليه ابن حزم:

وبناء علي ما سبق يمكن القول :إن الإمام ابن حزم قد التزم منهج الجدال المحمود في مواجهة قوى الباطل، طلبا لنصرة الحق وأعوانه بسلطان الحجة والبرهان.وقد حشد لذلك الكثير من الأدلة العقلية والنقلية علي حد سواء، كما حمل علي أولئك الذين ذموا الجدل والمناظرة، واصفا إياهم بالجهل وافتقارهم إلي الأدلة علي دعواهم، وأنهم بذلك يرومون قلب الحقائق؛ مما يخرج بهم علي منطق العقل والشرع. يؤكد ذلك تصريحه بالجدال الذي يرتضيه ويدعو إليه، قائلا:"والجدال الذي ندعو إليه هو طلب الحق ونصره، وإزهاق الباطل وتبينه.فمن ذم طلب الحق وأنكر هدم الباطل فقد ألحد.وهو من أهل الباطل حقا"(٢).

٣. المبحث الثاني: قواعد الجدل والمناظرة عند الإمام ابن حزم الأندلسي

يعكس الجدل والمناظرة حوارا بين طرفين، يتمسك كل منهما برأي مخالفٍ للآخر حول مسألة أو قضية ما، ويحاول كلٌّ واحد منهما نصرَ رأيه على الآخر، من خلال تقديم كل ما لديه من أدلة تثبت صواب رأيه من جهة وخطأ رأى خصمه من جانب آخر.

وبناء على حالة كل واحد منهما ومدى الالتزام بقواعد وآداب الجدل والمناظرة، فضلا عما لديهما من أدلة وبراهين على صواب رأي كل منهما، يمكن وصف المجادلة والمناظرة بالفاضلة وغير الفاضلة في مفهوم الإمام ابن حزم، وذلك على النحو التالي :

---

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله(جزءان في مجلد واحد)، جـ٢/ص١٢٥-١٢٦، ١٣١، دار الفكر، بيروت.

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٣٠.

أولا: المناظرة الفاضلة:

تكون المناظرة فاضلة، إذا كان أحد طرفيها يناصر قضية موقنا بصدقها،وهي صادقة في الواقع، ولديه من البراهين والأدلة على ذلك، ملتزما بقواعد المناظرة وآدابها،وفي المقابل لديه خصم ينشد الحق، ليأخذ به أنى وجده.

فلاشك أن مناظرة كهذه تنطوي على خير مضمون، وهى التي دعا إليها الشرع الحنيف، يؤكد ذلك الإمام ابن حزم قائلا:" من حكم الجدال أن لا يكون إلا بين اثنين طالبي حقيقة ومريدي بيان، إما أن يكون أحدهما على يقين من أمره ببرهان قاطع...والثاني لم يقف على بيان الحقيقة فهو يطلب الحقيقة والوقوف عليها. فإذا اتفق أن يكون المتناظران هكذا فتلك مناظرة فاضلة حميدة العاقبة، يوشك أن تنجلي عن خير مضمون وأجر موفور، وهي التي أمر الله تعالى بها؛ إذ يقول:﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)... ولم يذم قط هذه المناظرة إلا سخيفٌ جاهلٌ مذمومُ الطبع مفسدٌ على الناس، قد جعل هذا النفار ستارة دون جهله، فلم يقنع بأن حَرَمَ نفسَه الخيرَ حتى سعى في أن يحرمه سواه"(١).

يلي هذه المناظرة في الفضل مناظرةٌ أخرى يكون أحدُ طرفيها بخلاف الآخر في حكم القضية موضوع المناظرة، فبينما يكون أحدُهما موقنًا بصدقها- وهى صادقة حقا- ولديه من الأدلة ما يؤيد ذلك. والآخر لا يعتقد بها، بل لديه الاعتقاد بنقيضها. فما يكون من الطرف الأول إلا محاولة إقناع الآخر بما لديه من أدلة علي صدق دعواه، يشير الإمام ابن حزم إلى هذا النوع من المناظرة وحال طرفيها قائلا:" يكون أحدُهما على يقين من أمره ببرهان قاطع لا بإيهام نفسه ولا بأمر أقنعها به، ويكون الآخرُ متوهما أنه على حق متمنيا لنفسه ما لم يحصل له، وكالعامهِ في الظلمة خادعا لنفسه مغالطا لعقله، أو مغرورا كالحالم لا يدري أنه نائم حتى ينتبه. فهذا الذي ذكرنا أنه على يقين من أمره ببرهان قاطع يريد أن يوصل إلى مناظره من الحقيقة مثلَ ما عنده منها، ويحاول أن يحل شكَّ هذا الغالط المخالف له أو المغالط، ويفضح سرَّه في المغالطة ويدفع شرَّه"(٢).

---

١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/٣٢٦.

٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/٣٢٥-٣٢٦.

ثانيًا: المناظرة غير الفاضلة:

وتكون المناظرة غير فاضلة إذا كان كلُّ واحد من طرفيها معتقدًا بصدق قضية، تكون كاذبة في الواقع، وليس لديه من الأدلة عليها سوى التشغيب والمغالطة. فمثل هذه المناظرة لا تنطوي على خير البتة، بل تكون مدعاة لنشر الأباطيل. لاسيما بين العوام وغير ذوى التخصص. وقد أشار إليها ابنُ حزم بقوله:"وأما إذا كان المتناظران معا غالطين أو مغالطين. أو كان أحدُهما جاهلًا طالبًا. والثاني غالطا أو مغالطا، فتلك مناظرة يكثر فيها الشَّغب، ويعظم النصب، ويكثر الصخب، ويشتد الغضب، ويوشك أن تشتد مضرتها. وأما المنفعة فلا منفعة؛ وربما كان الجاهل فيها مسارعا إلى قبول ما قرع سمعه دون برهان صحيح؛ فيهلك باعتقاد الباطل وقبوله" (١).

وأمثال تلك المناظرة تمجها الأسماع والعقول الصريحة، فضلا عن نهي الشرع الحنيف عنها والتحذير منها، فقد ورد في الحديث الشريف(٢) قول الرسول ﷺ :(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(الزخرف-٥٨).

قواعد وآداب الجدل والمناظرة:

كما سبقت الإشارة إلى أن وصف الجدل بالمحمود والمناظرة بالفاضلة مرهون بما يتوفر فيهما من قواعد وآداب، وقد كان ابن حزم حريصًا كلَّ الحرص علي الإشارة إليهما في ثنايا كتبه، عندما تدعو الحاجة إلي ذلك، فجاءت متناثرة في كتبه،لاسيما ما كان منها خاصٌ بالجدل والمناظرة:كالتقريب،والفِصَل،والإحكام.

وما يعنينا الآن سرد هذه القواعد وتلك الآداب كما يراها ابنُ حزم.

قواعد الجدل والمناظرة:

إذا كان الجدل والمناظرة ينتظم في صورة حوار بين طرفين، يكون تارة أحدُهما سائلا والآخر مجيبًا، وتارة يكون العكس، فمن ثم اقتضى ذلك توفر شروط في السؤال الذي يوجهه أحدهما للآخر، وأخرى في الإجابة عليه.

---

(١) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤/٣٢٦.

(٢) الإمام الترمذي، الجامع الصحيح، (كتاب التفسير، باب سورة الزخرف)، جـ٥ ، ٣٧٨، تحقيق/أ:أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

البدء في المناظرة:

ينبغي للفاضل أن يُخَيِّرَ خصمَه فيمن يبدأ بالسؤال، وألا يدخل معه في نزاع على مَن يبدأ بالسؤال؛ فذلك دال على نقصٍ في العلم وضعف في الحجة، فضلا عن عدم ثقة بالنفس أو بصحة المسألة أو القضية موضوع المناظرة. يقول ابن حزم في ذلك:" فإن تنازعا الكلام أو تنازعا التكليم، مثل:أن يقول كلُّ واحد منهما: أنا اسأل. أو يقول كل واحد منهما للآخر: أنت السائل. فهذا عجزٌ من كليهما وقلةُ ثقة، إما بالقوة على نصر القول الذي يريد بيانه، وإما بصحة القول بنفسه؛ فإن كان من قلة ثقة بقوة نصره فليتسع في العلم ولا يتعرض للمناظرة حتى يقوى وهو كالجبان لا يحضر القتال فيوهن طائفته؛ فإن كان من قلة ثقته بصحة القول فهذا ملوم جدا في الإقامة على قول لا يثق بصحته، وواجب عليهما بالجملة الاتفاق على أمر يفتتحان به الكلام"(١).

طريقة ابن حزم في بدء المناظرة:

يحكى لنا عن طريقته في الجدل والمناظرة بما يعكس قدرته وتمكنه فيها، فيقول:"وأما نحن فطريقتنا في ذلك تخيير الخصم أن يكون سائلا أو مسئولا فأيهما تخير أجبناه إليه، فإن رد الخيار إلينا اخترنا أن يكون هو السائل، لأن هذا العمل هو أكثر قصد الضعفاء وعمدة مرغوبهم، وهم يضعفون إذا سئلوا، فنختار حسم أعذارهم وتوفيتهم أقصى مطالبهم التي يظنون أنهم فيها أقوى ليكون ذلك أبلغ في قطع معالقهم. ثم إنه إن بدا له في ذلك واختار أن نسأله أجبناه إلى ذلك أيضا، إلا أننا لا نقضي بذلك على غيرنا لأنه ليس واجبا، فمن تخير أن يكون سائلا وأذن له خصمه من ذلك فله أن يسأل وليس له أن يتحكم فيترك ذلك وينتقل إلى أن يكون مسئولا؛ فإن فعل فهذا عجز أو خرق في حكم المناظرة، ونحن نختار للفاضل أن لا يضايق في ذلك رغبة منا في إظهار الحق، وقلة سرور بالغلبة الظاهرة. وهكذا نحب لكل من اتبع طريقتنا"(٢). ولا شك أن كلامه يعكس اعتدادَه بنفسه، ورغبته في أن يقتدي به غيرُه، لاسيما تلامذته ومن كان على مذهبه.

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/٣٢٦

(٢) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤/٣٢٧-٣٢٨.

طريقة عرض السؤال وطريقة الإجابة:

تتنوع طريقة السؤال بحسب طبيعة القضية التي يُسْأل عنها، وكيفية الجواب عليها، إلي طريقتين:

١- طريقة الاتصال:وهى التي يقول عنها الإمام ابن حزم :"واعلم أن السائل إذا قال لخصمه: ما قولك في كذا؟ فالجواب مفوض إلى المسئول يجيب بما يشاء"(١).

٢- طريقة الانفصال أو التقسيم:وهى التي يقول عنها ابن حزم:"وأما إذا قال له: أمر كذا أحق؟هو فلابد من أن يجيب إما بنعم أو بلا، كسائل سأل فقال: ما تقول في الأرض أكريِّة أم لا؟، فلابد له من نعم أو لا. أو لو قال له: ما تقول في لحوم الحمر الأهلية أحلال أم لا؟ فكذلك أيضا، أو قال له هل الخلاء موجود أو لا؟ فلابد من نعم أو لا. وكذلك إذا سأل السائل بتقسيم فقال: ما قولك في كذا وكذا: أكذا أو كذا؟، مثل قوله: ما تقول في الورد أبارد أم حار أم معتدل أو ما تقول في كسب الحجام أمستحب أم حرام أم مكروه ؟ "(٢).

والسؤال الذي يتضمن تقسيما، يكون علي ثلاثة أوجه فيما يذكره ابن حزم (٣)علي النحو التالي:

(أ) أن تكون الأقسام مستوفاة:

فإن كانت الأقسام مستوفاة فلابد للمسئول من التزام أحد تلك الأقسام. وإلا فهو منقطع بالحقيقة.

(ب) أن تكون الأقسام غير مستوفاة:

وإن كانت غير مستوفاة فالسائل جاهل أو معاند، فإن ظهر انقطاع الخصم: فالمتقدمون يقولون: ليس على السائل بيان الحقيقة.وأما ابن حزم فيرى: أن بيان الحقيقة يكون علي السائل متى عجز المسئول عن ذلك؛ معللا ذلك بأن من أبطل حكما ما فعليه أن يبين قوله، فإما أن يدخل في مثل ما أبطل، وإما أن يجلى الحيرة. مستشهدا علي ذلك بأن الله تعالى قد أخذ الميثاق علي العلماء أن يبنوا ما علموه ولا يكتمونه، قال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ

---

(١) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤ /٣٢٩.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ /٣٢٩-٣٣٠.

(٣) انظر بتصرف:المصدر السابق، جـ٤ /٢٥٠، ٣٣٠.

الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(آل عمران١٨٧).

(جـ) أن تكون الأقسام مستوفاة مع زيادة قسم فاسد فيها:

وإذا استوفى الخصم الأقسام ولكنه زاد فيها قسما فاسدا، فليس للآخر أن يدع ما هما فيه، ويأخذ في الاحتجاج في بيان القسم الزائد الذي زاد لكن يقول له: زدت قسما فاسدا وهو كذا، وإنما ذكرته لك لئلا تجورَ عليَّ، فيكون سكوتي عنه، عند من لا ينصف، مثلَ إقراري به.

وأما عن القواعد الواجب التقيد بها عند إجراء المناظرة عند ابن حزم، فهي على النحو التالي:

أولا:الشروط الواجب توافرها في السؤال وصاحبه:

يولي ابنُ حزم للسؤال الذي تدور عليه المناظرة أهمية قصوى؛ إذ يرى أن من أخطأ موضع السؤال كان محجوجًا، ولا تقع علي المسئول عنه أية ملامة أو مسئولية؛ مستدلا على ذلك بالحديث الشريف الذي ورد فيه محاجة آدم موسى عليهما السلام،فيقول:"وقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ وضعَ السؤال موضعه، وكيفيةَ المحاجة، في الحديث الذي ذكر محاجة آدم موسى صلى الله عليهما وسلم...فموسى ﷺ وضع الملامة في غير موضعها فصار محجوجا؛ وذلك لأنه لامَ آدمَ ﷺ على أمر لم يفعله وهو خروج الناس من الجنة، وإنما هو فعلُ الله عز و جل، ولو أن موسى لامَ آدمَ على خطيئته الموجبة لذلك، لكان واضعا للملامة موضعها، ولكان آدم محجوجا... فعلَّمنا رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث كما ترى كيف نسأل عند المحاجة وبيَّن لنا ﷺ أن المحاجة جائزةٌ، وأن من أخطأ موضع السؤال كان محجوجا، وظهر بذلك قولُ الله عز و جل:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٥١)"[(١)].

ولعل هذا هو الذي دفع ابن حزم إلى تخصيص باب من أبواب كتابه(التقريب لحد المنطق)؛ لبيان أقسام السؤال، جاء فيه:"باب أقسام السؤال عما تريد معرفة حقيقته مما يرتقى إليه بالدلائل الراجعة إلى الأوائل[(٢)]. اعلم أنه لا يوصل إلى معرفة حقيقة بالاستدلال إلا بالبحث،

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٩.

(٢) يقصد بالأوائل: البديهيات من المعلومات،وهى أمور فطرية وليست مكتسبة. يقول ابن حزم عنها:" إنها ضرورات أوقعها الله في النفس ولا سبيل إلى الاستدلال البتة إلا من هذه المقدمات ولا يصح شيء إلا بالرد إليها فما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة فهو صحيح متيقن وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط"(ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ١ / ص١٣) .

والبحث يكون عن فكر واحد، ويكون عن تذكر من اثنين، فإما من معلم إلى متعلم وإما من متناظرين مختلفين باحثين؛ وهذا الوجه هو آخر ما نتوصل به إلى بيان الحقائق لكثرة التقصي فيه وأنه لا يبقى بعد توفيته حقه بقية أصلا."(١).

وهذه الشروط هي :

(أ) وضوح السؤال ودقته:

مما لاشك فيه أن الاضطراب في السؤال وعدم التحقق منه، يؤدى بالضرورة إلى اضطراب في الإجابة، وعندئذ، يكون الاضطراب في الإجابة راجعا إلى فساد السؤال، ويلام صاحبه أولا، ويصير محجوجا به. ومن ثم اهتم ابن حزم بجعل وضوح السؤال ودقته قاعدة مهمة لإنجاح الجدل والمناظرة وتحقيق الهدف المرجو منها يؤكد ذلك قائلا:"إن السؤال إذا حُقِّقَ بلفظ يفهم السائلُ منه مرادَ نفسه، ويفهم المسئولُ مرادَ السائل عنه، فهو سؤالٌ صحيحٌ، والجواب عنه لازمٌ، ومن أجاب عنه بأن هذا سؤال فاسد وأنه محال، فإنما هو جاهلٌ بالجواب، منقطع، متسللٌ عنه. وأما السؤال الذي يُفسد بعضُه بعضا، وينقض آخرُه أولَّه، فهو سؤالٌ فاسدٌ لم يُحَقَّق بعد، وما لم يحقق السؤال عنه فلم يسائل عنه، وما لم يسأل عنه فلا يلزم عنه جواب على مثله، فهاتان قضيتان جامعتان وكافيتان في هذا المعنى"(٢). ويؤكد المعنى في موضع آخر، فيقول:" وكل سؤالٍ أفسد حكمَ نفسِه فهو فاسد" (٣).

ولبيان أهمية وضوح السؤال وخلوه عن أي نقص أو اضطراب أو تناقض، نري ابنَ حزم يلزم نفسَه به رغبة منه في التزام الآخرين بذلك، يؤكده ماحكاه عن نفسه قائلا:"إننا نزيد في السؤال بيانًا ولا ندع للمتحير معنى يتحير فيه "(٤).

(ب) أن يكون السؤال سؤال المتعلم:

قد يصدر السؤال عن شخص يجهل إجابته ويطمئن لإجابة من وجّه إليه، وربما صدر عن شخص لا يطمئن لمذهب خصمه، فيكون سؤاله عندئذ لا بقصد الإجابة عنه بقدر ما هو محاولة

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٢٠.

(٢) ابن حزم، الفِصَل، جـ٢/ص ١٣٦-١٣٧.

(٣) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٥/ص٨٥

(٤) ابن حزم، المصدر السابق ، جـ٤/ص١٧٦.

بيان تهافت مذهبه، ويعد هذا لب الجدال والمناظرة، ولا ضير في ذلك مادام الهدف منه إثبات الحق.

أما إذا صدر السؤال عن شخص لا يجهل الإجابة عنه، ولم يكن في موقف مناظرة، فيعد هذا فضولا من صاحبه، ومنقصة فيه، وهو ما حذر منه ابنُ حزم داعيا كلَّ من يتوجه بسؤال غيره، لاسيما في عدم وجود مناظرة بينه وبين غيره، أن يكون سؤالُه سؤالَ من يطلب العلم، ويحدد صفته قائلا: "وصفة سؤال المتعلم هو أن تسال عن ما لا تدري لا عن ما تدري، فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك، وربما أدى إلى اكتساب العداوات. وهو يعد عين الفضول. فيجب عليك أن لا تكون فضوليًا، فإنها صفة سوء" (١).

(ج) لا يجوز الانتقال من مسألة إلى أخرى إلا بعد استيفاء جميع أركانها.

معلوم أن الانتقال من مسألة إلي أخرى مرهون باستيفاء جميع أركان المسألة الأولى، ودليل ذلك إقرار المتناظرين بما تم التوصل إليه. وإلا كان الانتقال قبل ذلك جهل من صاحبه، ودليل علي انقطاعه، يؤكده قولُ الإمام ابن حزم:"واعلم أن من ترك ما هو فيه مع خصمه من المناظرة وخرج إلى مسألة أخرى فجاهل مشغب منقطع "(٢).

ثانيًا: الشروط الواجب توافرها في الإجابة وصاحبها

سبقت الإشارة إلى أن حالة السؤال وصفته تنعكس بدورها على الإجابة وصاحبها، وهو ما نبه عليه ابنُ حزم، كذلك فإنه يولى الإجابة عن السؤال المطروح في المناظرة أهمية قصوى؛ إذ إنها تعكس تمكن أو عدم تمكن صاحبها، ومن ثم يضع عددا من الشروط والقواعد التي ينبغي أن تتوفر فيها، ومنها:

(أ) التحقق من كلام الخصم وعدم الغفلة عنه:

من المعلوم أنه لكي تؤدى المناظرة دورَها ويحقق كل طرف فيها الغاية المرجوة منها، ينبغي إنصات كل طرف للآخر، والفهم الجيد لأقواله وأدلته، فكثيرا ما يتناظر اثنان ويطول بينهما

---

(١) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١/ص ٤١١-٤١٢.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٠.

الجدال، دون الوصول معا إلى نتيجة مقنعة، فإذا فتشت عن السبب؛ وجدته في عدم فهم كل منهما للآخر، ولذا كان من قواعد الجدل والمناظرة ضرورة التحقق من كلام الخصم وعدم الغفلة عنه، وهو ما شدد عليه ابنُ حزم قائلا:"وحَقِّق كلَّ ما تسمعه من خصمك ولا تتغفله، وأقله إن أخطأ، ولا تدع مشكلا إلا وقفته عليه، فإذا استقر البيان سليما من النقص والإشكال فأجب حينئذ" (١).

يؤيد هذا ما جاء في وصية أب لابنه:" لا ترد على أحد جوابا حتى تفهم كلامَه ؛ فإن ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكد الجهل عليك، ولكن افهم عنه، فإذا فهمته فأجبه، ولا تتعجل بالجواب قبل الاستفهام، ولا تستح أن تستفهم إذا لم تفهم؛ فإن الجواب قبل الفهم حمق، وإذا جهلت قبل أن تسأل فاسأل فيبدو لك، واستفهامك أحمد بك، وخير لك من السكوت على العي"(٢).

(ب) لا يجب تصوير ما لا سبيل إلى تصويره أو ما لا صورة له أصلا:

ليس من شأن العقل القيام بتصوير ما لا سبيل إلى تصويره، أو تكليفه بتصوير ما لا صورة له أصلا، فهذا فوق مدارك العقول، ومن رحمة الخالق عز وجل بخلقه أنه لم يكلفهم فوق ما يطيقون، قال تعالى:﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٣)

وقد جعل الإمام ابن حزم ذلك قاعدة من قواعد الجدل وشرطا من شروط إنجاح المناظرة، فيقول:"واعلم أنه ليس على المرء أكثر من نصر الحق وتبيينه، ثم ليس عليه أن يصور للحواس أو في النفوس ما لا سبيل إلى تصويره وما لا صوره له أصلا، كمن أثبت أن الواحد الأول لا جوهر ولا عرض ولا جسم ولا في زمان ولا في مكان ولا حاملا ولا محمولا، فأراد الخصم منه أن يشكل له ذلك، فهذا لا يلزم؛ وهذا كأعمى كلِّف بصيرا أن يصور له الألوان، فهذا ما لا سبيل إليه، وهذا تكليف فاسد "(٤).

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٤.

(٢) انظر:جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، جـ٢ / ٢٠٧.

(٣) (المؤمنون٦٢).

(٤) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٤.

(جـ) أن تعكس الإجابة أو المراجعة علم صاحبها:

لاشك أن ما يدور داخل دائرة الجدل والمناظرة، من حوار ومناقشة يعكس مدي ما يتمتع به كل طرف فيها من علم، وما يتحلي به من آداب، ولذا يجب أن تتسم إجابة ومراجعة كل طرف للآخر بالدقة والموضوعية وأن تكون موثقة بالأدلة، وأن تخلو من التكرار لكلام الطرف الآخر، وهو ما يؤكده ابنُ حزم في نصيحته لطرفي الجدال والمناظرة،قائلا:"أن تراجع مراجعة العالم، وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضًا بينًا، فإن لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك إلا تكرار قولك أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة، فأمسك لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا على تعليم، بل على الغيظ لك ولخصمك والعداوة التي ربما أدت إلى المضرات" (١).

(د)ضرورة استيفاء كل عناصر المسألة(موضع الجدل والمناظرة).

ينبغي على المجيب إلى الجدل والمناظرة عدم الانتقال من المسألة (موضع الجدل والمناظرة) إلى مسألة أخري قبل استيفاء كل عناصرها، وتوضيحها توضيحا لا يبقى معه أدني ريب، وعلامة ذلك سكون نفس الخصم والإقرار بما جاء عليها. يؤكده قولُ ابن حزم:"وتحفظ من الخروج من مسألة إلى مسألة قبل تمام الأولى وبيانها فهذا من فعال أهل الجهل"(٢).

(هـ) التزام الموضوعية:

إن التحلي بالموضوعية هو سمة العلماء، وقاعدة أصيلة من قواعد الجدل والمناظرة التي لابد منها، ولكي تتحقق في الجدال والمناظرة، ينبغي أن يحرر محل النزاع ولا يخرج عن محل الخلاف، وأن يقبل كل طرف على الآخر طالبا الحقيقة لا غير، فلا يقبل منه شيئا بلا برهان، وكذلك لا يرفض ما لديه بلا برهان، بعيدا عن أية أهواء شخصية أو مذهبية، وهو ما حذر منه ابنُ حزم، سواء تمت المناظرة وجها لوجه بين طرفين، أم تمت من خلال الكتابة والتأليف، فنراه يقول:"فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع. وأيضًا فلا تقبل عليه إقبال المصدق به المستحسن إياه قبل علمك بصحبته ببرهان قاطع فتظلم في كلا الوجهين نفسك وتبعد عن إدراك الحقيقة، ولكن أقبل عليه سالم القلب عن النزاع عنه والنزوع إليه، لكن إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى؛ ليزيد به علمًا وقبوله إن

---

(١) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس (رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١/ص٤١٢.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٤.

كان حسنًا أو رده إن كان خطأ، فمضمون لك، إذا فعلت ذلك، الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم" (١).

(و) ألا يطول الكلام بين طرفي المناظرة، وألا يكون مختصرا يقصر عن البيان.

مادامت الحقيقة هي الغاية المنشودة من المناظرة – لاسيما الفاضلة منها – فلابد من الوصول إليها من أقصر الطرق، شريطة أن يتسم الكلام بين طرفيها بالإيجاز غير المخل أو الإطناب غير الممل، يؤكده قولُ ابن حزم:"وأن لا يطول المتكلم منهما بما لا فائدة فيه، وأن يفضيا إلى الاختصار الذي لا يقصر عن البيان الموعب"(٢).

(ز) لا جدال بلا حجة وبرهان :

لما كان الجدل والمناظرة يدور بين طرفين كل منهما يسعى لتأكيد صواب رأيه وإقناع الطرف الآخر به، استدعى ذلك البرهنة عليه وجمع كل الأدلة لذلك؛ إذ لا يصدق قول بلا حجة وبرهان،وهو أمر يؤكده منطق العقل والنقل، وهو ما ذهب إليه ابنُ حزم، مؤكدا إجماع أهل العلم واللغة على ذلك، ومستعرضا بعض آيات القرآن الكريم في هذا الشأن، ومنها قوله تعالى: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(يونس٦٨)، فقال:"ففي هذه الآية بيان أنه لا يقبل قولُ أحد إلا بحجة، والسلطان ههنا بلا اختلاف من أهل العلم واللغة هو الحجة، وإن من لم يأت على قوله بحجة فهو مبطل بنص حكم الله عزوجل، وأنه مفتر على الله تعالى وكاذب عليه عزوجل بنص الآية، لا تأويل ولا تبديل، وأنه لا يفلح إذا قال قولة لا يقيم على صحتها حجة قاطعة"(٣). وقوله تعالى:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾(العنكبوت٦٨)، فقال:" في هذه الآية كفاية في إيجاب ألا يصدق أحدٌ بما لم تقم عليه حجة، وألا يأتي ما قامت عليه الحجة، فمن أظلم ممن عرف ما ذكرنا وأخذ بوسواس يقوم في نفسه، أو بخبر لم يقم على وجوب تصديقه برهان"(٤). " وقال تعالى ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة١١١)،

---

(١) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١/٤١٢-٤١٣.
(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤ / ٣٢٦.
(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٣.
(٤) ابن حزم، المصدر السابق، جـ١/ص ٢٥.

فأوجب تعالى أن من كان صادقا في دعواه فعليه أن يأتي بالبرهان وإن لم يأت بالبرهان فهو كاذب مبطل أو جاهل، وقال تعالى: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(آل عمران٦٦) فلم يوجب تعالى المحاجة إلا بعلم ومنع منها بغير علم" (١).

وعليه فمن ادَّعَى قولا بلا دليل فهو مفترٍ على الله عز و جل الكذب، وقولُه عندئذ ساقطٌ لا يؤبه به.إذ إن البرهان فيصل بين المحق والمبطل، يؤكده قول ابنُ حزم:" فبأي شيء يعرف المحقق منهما من المبطل: هل يجوز أن يعرف ذلك إلا بدلائل غير كلامهما؟ فهذا كلام العزيز الجبار الخالق البارئ قد نصصناه في إتباع البرهان وتكذيب قول من لا حجة في يديه، وهو الذي لا يسع مسلما خلافه "(٢).

يضاف إلى ذلك كون البرهان فيصلا بين الجدال المحمود والجدال المذموم كما أكدته آيات القرآن الكريم، وأشار إليه ابن حزم قائلا:"فلما وجدنا الله تعالى قد أمر في الآيات التي ذكرنا بالحجاج والمناظرة ولم يوجب قبول شيء إلا ببرهان، وجب علينا تطلب الحجاج المذموم على ما قدمناه فوجدناه قد قال:﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾(الكهف٥٦)، فذم تعالى كما ترى الجدالَ بغير حجة والجدالَ في الباطل، وأبطل تعالى بذلك قولَ المجانين كل مفتون ملقن حجة، وبيَّن تعالى أن المفتون هو الذي لا يلقن حجة، وأن المحق هو الملقن حجة على الحقيقة وهم أهل الحق، وقال تعالى:﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾(غافر٣٥)، فقد جمعت هذه الآيات بيان الجدال المذموم، والجدال المحمود الواجب"(٣).

(ح)المطالبة بتقديم البرهان دون النظر إلى أية اعتبارات أخرى.

لا ينبغي لأحد أن يغتر بشخص مصدق عنده، يأتيه بأشياء، فلا يطالبه بالدليل عليها؛ لأن ذلك يعد منقصة فيه، يخرج به عن قواعد العلم والمعرفة، يؤكده قولُ ابن حزم:"وإياك والاغترار بكثرة صواب الواحد فتقبل له قولةً واحدةً بلا برهان، فقد يخطئ في خلال صوابه في ما هو أبين وأوضح من كثير مما أصاب فيه"(٤).

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٥.

(٢) ابن حزم، المصدر السابق، جـ١/ص٢٧، ١٠١.

(٣) ابن حزم، المصدر السابق، جـ١/ص٢٦.

(٤) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص ٣٣٩.

(ط) لا يضر الحقَّ التقصيرُ في إقامة البرهان عليه.

كثيرا ما يكون لدى الشخص مجموعة من الحقائق، لكنه قد يعجز عن سوق الأدلة والبرهنة عليها، أو بعضها، فلا ينبغي أن يتخذ ذلك العجز ذريعة من خصمه، فيكثر طعنه في تلك الحقائق، متجاهلا أن العجز عن نصرة الحقائق بالبراهين الساطعة أمر يعيب صاحبها لا هي. يؤكده قولُ ابن جزم :"إن قصَّر مُقَصِّر عن إقامة البرهان على حق يعتقده، فذلك لا يضرُّ الحقَّ شيئا. ولا يفرح بهذا من خصمه إلا الذي يفرح بالأماني وهو الأحمق المضروب به المثل" (١).

(ى) لا يجوز تصحيح الشيء بمثله مع جواز إبطاله بنفسه:

معلوم أن العقل ينتقل من المعلوم إلي المجهول، وليس العكس، فإذا كان الشيء مجهولا تعذر الاستدلال عليه بمثله؛ لأن مثله عندئذ يكون مجهولا، ولا يمكن الاستدلال على مجهول بمجهول"وإنما الصواب أن يستشهد على مجهول بمتيقن، فإذا كان الشيء مجهولًا فليس متيقنًا عند الذي هو عنده مجهول، وأنت هاهنا تروم أن تبين المجهول بنفسه التي هي ذلك المجهول بعينه" (٢).

كذلك لا يجوز تصحيح الشيء بنفسه؛ يشير إليه قولُ ابن حزم:" إن الخبر لا يعلم صحته بنفسه ولا يتميز حقه من كذبه وواجبه من غير واجبه إلا بدليل من غيره" (٣).

ويؤكد المعني نفسه قائلا :"واعلم أنه لا يجوز أن يُصحِّحَ الشيءُ بنفسه البتة، وجائز أن يبطل بنفسه، ولا تظن أن الأوائل التي منها يؤخذ البرهان صُحِّحَت بأنفسها فَتُخطئ، بل تلك أشياء قد ذكرنا أن الخلقة صححتها، وأنه لم يخل ذو الفهم قط من معرفة صحتها.ولا تظن- أيضا- أن إبطال الشيء بنفسه تصحيح له فتخطئ، ولم يبطل بنفسه من أجل أنه صحح إبطاله به فكان حينئذ يكون مصححا مبطلا وذلك محال، لكن لّما أُبطل بنفسه أيقنَّا أنه باطل؛ لأن الحق الصحيح لا يبطل أصلًا، ولأنه نقض حكمه، فكل ما انتقض فباطل"(٤).

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٦.

(٢) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤/ص٢٩٤.

(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٣٠.

(٤) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٣.

(ك) لا يجوز معارضة الخطأ بالخطأ[١]:

معلوم أن الخطأ لا يقوم دليلا علي شيء؛ إذ هو مخالف للواقع، ومن ثم لا ينبغي أن يعارض بخطأ مثله، بل يعارض بالحق الذي يدحضه، وهو ما يؤكده قولُ ابن حزم:"واعلم أن من الخطاء معارضة الخطاء بالخطاء في المناظرة مثل أن يقول السائل للمسئول:أنت تقول كذا أو لم تقل كذا، فيقول المجيب: وأنت تقول أيضا كذا أو لأنك أنت أيضا تقول كذا، فيأتيه بمثل ما أنكر هو عليه أو أشنع، فهذا كله خطاء فاحش وعار عظيم واقتداء بالخطاء "[٢].

(ل) الحق لايضاد الحق:

معلوم أن الحق ثابت لا يتغير، ولا يتعارض مع حق مثله. كذلك فإن الحكم بكذب الجزء دليل علي كذب الكل،وعليه إذا كانت بعض براهين الجدال كاذبة، كان جدالا باطلا،وهو ما يؤكده قولُ ابن حزم:"كل طريق من الجدال أبطل بعضُه بعضا وكذَّب بعضُه بعضا وتناقُض وتفاسُد، فهو كله فاسد باطل.والحق لا يعارض الحق أبدا، ولا يقوم دليل على صحة ضدين في معنى واحد أبدا"[٣]. وقد علل ابن حزم ذلك – وإن كان بديهيا- بقوله:"لأن معنى المضاد أن يبطل أحد المعنيين الآخر، والشيء إذا أبطله الحقُّ فقد بطل، والباطل لا يكون حقا في حال كونه باطلا. وإذا أبطل بعضُ الشيء بعضا فواجب أن يكون كلُّه باطلا لما قلنا من أن الحق لا يبطل بعضه بعضا"[٤].

---

(١) يجوز ذلك عند ابن حزم في مكانين اثنين فقط:"أحدهما أن يكون القولُ الذي اعترض به المجيب قولًا صحيحا ينتج ما يقول هو، فهذا وجه فاضل وقطع للسائل. وذلك كمعتزلي قال لآخر لِمَ قلت إن الله تعالى خالق الشر؟ فقال: لأنك تقول معي إن الله تعالى خلق جميع العالم من جواهره وأعراضه، والشر عرض، فالله تعالى خالق الشر. فهذه معارضة صحيحة إلا أن ظاهر لفظها غير محكم؛ لأنه في الظاهر إنما جعل علةَ قوله بما يقول، قولَ خصمه بما يقول، فلزمه أنه لولا قول خصمه بذلك لم يقل هو بما قال. وهذا خطاء وإنما الصواب أن يقول: لقيام البرهان على أن الله تعالى خالق الجوهر والعرض ثم يمضي في مسألته.والوجه الثاني هو أن يكون السائل مشغبًا يقصد التشنيع والإغراء والتوبيخ ولا يقصد طلب حقيقة، فهذا واجب أن يكسر غربه ويردع عيبه بمثل هذا فقط ولا يناظر بأكثر من ذلك".التقريب لحد المنطق (رسائل ابن حزم) جـ٤ /ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤ /ص ٣٣٢.

(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ٦ /ص١٩٦.

(٤) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٦ /١٩٥.

(م) ضرورة الاهتمام بالجوهر وعدم الانخداع بالمظهر:

كثيرا ما تكون المظاهر زائفة، ينخدع بها ذوو العقول الضيقة والنفوس المريضة، الذين يتوقفون عندها غير مبالين بجوهر الأشياء وحقائقها، وهو أمر معيب لكل من يتمسك به لاسيما الذين ينشدون الحق بجدالهم، ولذا كان الواجب الاهتمام بحقائق الأشياء وعدم التوقف عند ظواهرها، وكذلك عدم التوقف عند اتهامات الآخرين، وهو ما يؤكده ابنُ حزم ناصحا أحد إخوانه؛ قائلا له:"ولتكن رغبتك في أن تكون محقا عالما عاقلا غالبا في الحقيقة، وإن سميت مبطلا جاهلا أحمق مغلوبا، أكثر من رغبتك في أن تسمى محقا عالما عاقلا غالبا وأنت في الحقيقة مبطل جاهل أحمق مغلوب؛ بل لا ترغب في هذا أصلا وعاده واكرهه جدا...وكذلك أن توصف بالفسق وأنت فاضل خير من أن توصف بالفضل وأنت فاسق"(١).

(ن) ضرورة الالتزام بكل ما تطالب به خصمك:

لكي تسير المناظرة نحو تحقيق الهدف المرجو منها، ينبغي ضرورة التزام كل طرف بما يطالب به الطرف الآخر، وهو ما يحقق العدل الذي يجلب الاحترام المتبادل بين طرفيها، يؤكد ذلك ابنُ حزم قائلا:"وكما تطالب خصمك بذلك فالتزم له سواء بسواء"(٢).

ومن مظاهر ذلك الالتزام:

١- وضوح السؤال وخلوه عن النقص والإشكال.

٢- ألا يدخل في المناظرة ما ليس فيها.

٣- تأمل المقدمات والنتائج؛ إذ إنّ صحة النتائج مترتبة على صحة المقدمات.

يؤكد ذلك قولُ ابن حزم للمناظر:" وبيِّن سؤالَك سليمًا من النقص والإشكال. وإياك وإدخال ما ليس من المناظرة فهذا من فعل أهل المجون، أو من يريد أن يطيل الكلام حتى ينسي آخرُه أولَه لينسى غلطه وسقطه. وتأمل مقدماته ومقدماتك وعكسك وعكسه ونتائجه، فلا ترض لنفسك من خصمك ولا من نفسك لخصمك إلا بالحق الواضح." (٣).

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/٣٣٤.

(٣) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤/٣٣٤.

(ص) لا تكون المناظرة إلا مع الأمن:

لاشك أن توفير الجو الملائم لعقد المناظرة من حيث الأمن والأمان أمرٌ بالغُ الأهمية، إذ يتيح لطرفيها الإقبال عليها دونما أية تهديدات، وهو ما يفسح المجال أمام كل منهما لإظهار دعواه والبرهنة عليها. وهو ما لا يدع لأحد عندئذ التعلل بشيء،كأن يتعلل بأنه "في حراسة الروح علي شغل من حراسة المذهب ونصرة الدين"(١).

ويبدو أن تمسك ابن حزم بهذه القاعدة – وإن كان يراعى بها الشعور العام لطرفي المناظرة – قد لاقى قبولا وارتياحا في نفسه لاسيما في شيخوخته، بعد سنوات الصدام في فترات الشباب، وما جرَّ عليه من ويلات جراء اندفاعاته غير المحسوبة – بعض الشيء – في الكثير من مناظرة كل من خالف معتقده أو مذهبه. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يحفظ لأصحاب العزائم فضلهم في مناظرة غيرهم، فأثنى عليهم؛ لما يقومون به من خدمات جليلة تحفظ للدين هيبته وقدسيته في نفوس أتباعه، فضلا عن تفنيد شبهات المتربصين به من أعدائه، غير مبالين بما يتهددهم من أخطار، لا لشيء سوى إعلاء لكلمة الحق والرغبة في ثواب اللّه تعالى، يؤكد ذلك قولُه:"فلسنا نتكلم مع المخاوف، وإنما المناظرة مع الأمن، إلا من بذلَ نفسَه للّه تعالى وعَرَفَ ما يطلب وما يبذل في ذلك، فله الفوز إن أراد نصرَ الإسلام أو الحقَّ فيما اختلف فيه المسلمون فقط. ولا أرى أن ينزل المسلم العاقل عن نفسه التي لا شيء موجود في وقته من الخلق أعز عليه منها، ولا أوجب حرمة إلا فيما فيه فوزها الأبدي فقط، فالعاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة "(٢).

محاذير يجب الحذر منها في طريق الجدال والمناظرة:

ثمة محاذير يجب أخذ الحيطة والحذر منها في طريق الجدل والمناظرة،منها ما يتعلق بالخصم. ومنها ما يتعلق بالقضية موضع الجدال والمناظرة. ومنها ما يرتبط بشخص المناظِر. وبيان ذلك علي النحو التالي:

(أ) المحاذير المتعلقة بالخصم:

ثمة أصناف من الناس لا تحسن مناظرتهم، ولا تجدي مجادلتهم، ومن هؤلاء :

---

(١) الإمام الجويني، الكافية في الجدل، ص٣١٩.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق (رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/٣٢٨.

١- من جُبِلَ على المعارضة والمخالفة والصياح وعدم الانصياع للحق متى لاحَ له، ومن ثم يرى ابنُ حزم الحذر من الدخول في مناظرته، والبحث عن بدائل أخرى لصرفه عن ضلاله إما بالوعظ أو بالزجر أو بالقَدع[١]، فإن لم يُجدِ شيئا معه، فالواجب تجنبه كما يتجنب المجنون، فإنَّ أذاه أكثر من أذى المجانين،يؤكده قولُ ابن حزم: " واحذر مكالمة من ليس مذهبة إلا المضادة والمخالفة أو الصياح والمغالبة، فلا تتعن به ولو أمكنك صرفه عن ضلاله بالوعظ لكان حسنا. فإن لم يكن فبالزجر والقدع، فإن كان ممتنع الجانب فليجتنب كما يجتنب المجنون فأذاه أكثر من أذى كثير من المجانين" [٢].

وهناك من العلماء من بالغ في وصف مَن هذا حاله، فألحقه بعالم الحمير، إذ يقول:"إذا رأيتَ إنسانًا قد جُبِلَ على الخلاف، إن قلت : لا، قال: نعم، وإن قلت: نعم، قال: لا، فألحقه بعالم الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيته بَعُد، وإن أبعدته قَرُب"[٣].

٢- من يتحلى بالمراء [٤] واللجاج : سبقت الإشارة إلي أن الجدال المذموم الذي نهى الشرع الحنيف عنه وحذر منه، هو الذي يقود صاحبه إلى المراء واللجاج؛ لما فيهما من التمويه بالباطل وإزكاء نار الفتنة، فضلا عن وقوع صاحبهما في الضلال.وقد التزم ابنُ حزم نهجَ الشرع في التحذير منهما، يؤكد هذا قولُه:"وهذا هو الضلال حقا وهو أن يحملهم اللجاج والعمي في لزوم أصل قد ظهر فساده وتقليد من لا خير فيه من أسلافهم"[٥].

٣- من يتصف بعدم الإنصاف وسوء الفهم. فهذا الشخص ينبغي الحذر منه، وعدم الدخول في مناظرته؛ فذلك إضاعة للوقت بلا طائل، يؤكده قولُ ابن حزم:" واحذر كلَّ من لا ينصف، وكلَّ

---

(١) القَدْعُ : كَفُّك إنسانًا عن الشَّيْء بيدِك أو بلسانِك أو برأْيِكَ فَيَنْقَدِعُ لمكانك قال: (قِيامًا تَقْدَعُ الذِّبّانَ عَنْها ... بأَذْنابٍ كأَجْنِحَةِ النُّسور)

(الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، جـ١/ ١٤٤، تحقيق/د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ /ص٣٤٠.

(٣) أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، م٢/ص٤٤٥، تحقيق/محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١/١٩٩٤م.

(٤) المراءُ: هو الاستمرار في الجدل بعد ظهور الحق مكابرة. وعن الإمام مالك قوله: (المراءُ يقسّي القلوب ويورث الضغائن).انظر: إحياء علوم الدين للغزالي جـ٣/١٧٦.

(٥) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، جـ٣/ص٢٩.

من لا يفهم، ولا تكلم إلا من ترجو إنصافَه وفهمَه، وأنفق الزمان، الذي يمضي ضياعا في مكالمة من لا يفهم ولا ينصف، فيما هو أعود عليك تُعِش غانما للفضائل سالمًا من المغالط. وهذا حظان جليلان جدا. واجعل بَدَلَ كلامَه حمدَ اللّٰه عزوجل على السلامة مِن مثل حاله"(١).

٤- الحذر من سؤال المتعنت والمكابر: قد ينحرف الجدل عن مقصده الأسمى في نصرة الحق عند البعض، إلى اتخاذه وسيلة لمجرد الغلبة والانتصار عند البعض الآخر، وهو بذلك يكون أجدر بوصفه بالجدال المذموم، الذي يأباه العقل والنقل معا؛ لاسيما إذا كان صاحبُه موصوفا بالتعنت والمكابرة وعدم الانصياع للحق متى لاح له. وقد جاء تحذير ابن حزم من مخالطة مَن هذا وصفه، مؤكدا أن الحكم ببطلان الشيء والغضب من صاحبه ينبغي أن يكون مؤسسا علي البرهان المؤدي إلي اليقين،دون النظر إلي اعتبارات وأهواء شخصية؛ فيقول:"وإياك وسؤال المتعنت ومراجعة المكابر الذي يطلب الغلبة بغير علم، فهما خلقا سوء دليلان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقوة السخف، وحسبنا اللّٰه ونعم الوكيل. وإذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب، فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع"(٢). وإلي المعني نفسه يذهب الإمام الجويني قائلا:"وعليك ألا تفاتح بالمناظرة من تعلمه متعنتا؛ لأن كلام المتعنت ومن لا يقصد مرضاة اللّٰه في تعرف الحق والحقيقة بما تقوله، يورث المباهاة والضجر وحزن القلب وتعدى حدود اللّٰه"(٣).

٥- الحذر من المتبجح بقدرته في الجدل إلي الحد الذي يدَّعِي معه - زورا وبهتانا - قدرته علي قلب الحقائق وذلك بجعل الباطل حقا، والحق باطلا، فذلك عمل المشاغبين والسوفسطائيين الذين كانوا يفاخرون بتأييد الرأي الواحد ونقيضه في آنٍ واحد(٤)،وقد"استخدموا لتحقيق هذا الهدف الخطابة الطنانة التي تعتمد علي زخرف القول واختراع الحجج الزائفة أكثر من اعتمادها علي العقل"(٥)، وهكذا حال المشاغب في كل فن أو علم، ولخطورته وعدم انصياعه للحق توالت تحذيرات العلماء - قديما وحديثا - من مغبة الدخول معه في جدال أو

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ /ص٣٤١.

(٢) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس (رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١ / ٤١٢.

(٣) الجويني، الكافية في الجدل، ص٣٢٠.

(٤) انظر بتصرف:تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ/يوسف كرم، ص٤٥.

(٥) د/محمود قاسم، المنطق الحديث ومناهج البحث، ص١٣، دار المعارف، القاهرة، ط٥/١٩٦٨م.

مناظرة،واصفين إياه بالجهل والحمق،يؤكده قولُ الإمام ابن حزم:"وإياك والالتفات إلى من يتبجح بقدرته في الجدل فيبلغ به الجهل والنوك[1] إلى أن يقول:إني قادر على أن أجعل الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا،فلا تصدق مثلَ هؤلاء الكذابين،فإنهم سفلة أرذال أهل كذب وشر ومخرقة.واعلم أنه لا سبيل إلى ذلك لأحد ولا هو في قوة مخلوق أصلا"[2].

(ب) المحاذير المتعلقة بالقضية موضوع الجدل والمناظرة.

ثمة محاذير تتعلق بالقضية موضوع الجدل والمناظرة، أشار إليها ابنُ حزم وحذَّر منها، ومنها:

١- ضرورة الحذر من الكلام في أي علم من العلوم قبل التبحر فيه:

سبقت الإشارة عند تقسيم الجدل إلى وجود قسم منه يسمى بالجدل المذموم، وهو ذلك الجدل الذي يتصف صاحبه بالجهل وعدم العلم، فإذا جادل، جادل بلا حجة أو برهان، فكان هذا الصنف من المجادلين ممَّن ذمهم الله تعالى بقوله:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾(الحج٣). وقال تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(الحج:٨،لقمان:جزء الآية٢٠).

وبناء عليه يحذر ابنُ حزم من الدخول في الجدل والمناظرة بلا علم أو دليل، فذلك أدعى لوصف صاحبه بالحمق، وستكون أقوالُه – عندئذ – حجةً عليه لا له،ولن يجنى من ذلك سوى استهجان الناس له، لاسيما خصمه،فنراه يقول:"وإياك والكلام في علم من العلوم حتى تتبحر فيه إلا على سبيل الاستفهام والتزيد إلا ما أحسنت منه فقط"[3].

وقد وجد تحذير الإمام ابن حزم صداه لدى طائفة من العلماء ؛حذَوا حذوه، من هؤلاء الإمام الغزالي الذي ألزم نفسَه بذلك أولا، ففي صدامه مع بعض الفلاسفة، رأى ألا يناظر أحدا منهم وإظهار تهافته[4]، قبل التبحر في علومهم، إلى الحد الذي يمكنه من مقارعة الحجة بالحجة، يؤكد ذلك عند بيان السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه(مقاصد الفلاسفة)؛فيقول:"...أما بعد

---

(١) النُّوكُ بالضم والفتح : الحُمْقُ .الفيروز آبادي، القاموس المحيط ص١٢٣٤، ط/دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ ص٣٣٨.

(٣) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤ /ص٣٤١.

(٤) لم يكن الإمام الغزالي عدوا للفلسفة، يؤكد ذلك كتابه(تهافت الفلاسفة)فعنوان الكتاب ومضمونه يظهر أولا:تهافت الفلاسفة وليس تهافت الفلسفة. ثانيا:تهافت البعض وليس الكل من الفلاسفة الذين قالوا:بقدم العالم.وإنكار علم الله تعالى للجزئيات.وإنكار البعث الجسماني.

فإني التمست كلاما شافيا في الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم، ومكامن تلبيسهم وإغوائهم، ولا مطمع في إسعافك إلا بعد تعريفك مذهبهم، وإعلامك معتقدهم؛فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها، محال؛بل هو رمى في العماية والضلال"(١).

٢- ألا تتعلق القضية أو السؤال (موضوع المناظرة)بأمر محال:

المحال:ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد وفي وقت واحد(٢) فإذا تعلق السؤال به كان محالا، كأن يتعلق بأمر لا وجود له،أو بما له وجود، لكن السؤال عنه يصبح محالا ما لم ترد الإجابة عنه عن طريق الوحي المعصوم؛ لأنه فوق إدراك العقول.وعندئذ يكون ذلك السؤال مضيعة للوقت،ومن ثم يرى ابنُ حزم ضرورة تجنب مثل هذا السؤال لاسيما في الجدال والمناظرة؛ ولذا ينصح كلا المتناظرين من ترك" المسائل التي هي محالية السؤال، فلا أجوبة لها بالمقابلة؛ لأنك إن قابلت المحال كنت محيلا"(٣).ويضرب المثال على ذلك فيقول:"لو سأل سائل: هل يحيط علم الله بذاته أم لا يحيط؟ قيل له:لا تسل عما لا يتناهى بصفة الإحاطة فليس لك جواب، أرأيت لو قلت: أيحيط المحيط بما لا يحاط به ؟ ألم يكن محالا ؟ كما لو قلت: هل لما لا حد له حد؟وهل لما لا نهاية له نهاية ؟وهل يخلوا الذهب أن يكون أسود أو أخضر؟ قلنا:لا يقع عليه واحدة من هاتين الحالتين، فكذلك بمن سأل عن متقابلين في المخلوقات ليس واحد منهما فيه، نفيا جميعا.ومن سأل عن الخالق تعالى عز وجل بما يقع على المخلوقات من الصفة، ومن جهة الضد والند، ومن جهة الكم والكيف "(٤).

(ج) المحاذير المتعلقة بشخص المناظِر:

ثمة محاذير تتعلق بشخص المناظِر، ينبغي الحذر منها، ومنها:

١- الغرور: يؤكده قولُ ابن حزم:"وإياك والامتداح بما تحسن، واترك ذلك فهو من غيرك فيك أحسن"(٥).

---

(١) الإمام الغزالي، مقاصد الفلاسفة، ص٣١تحقيق/د/سليمان دنيا، ط/دار المعارف بمصر ١٩٦١م.

(٢) المعجم الوسيط (باب الحاء) جـ١ /ص ٢١٠.

(٣) ابن حزم، التقريب لحد المنطق (رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤/ص٣٨٦.

(٤) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤/ص٣٨٦.

(٥) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤ /ص٣٤١.

٢- العناد، لاسيما في الباطل؛ إذ يصف ابن حزم المعاندة والمكابرة - ممن يعلم الحق يقينا ويكابر علي خلافه - بالعار الذي يشين صاحبه، فيقول:"والمعاندة والمكابرة عار وإثم وسخف"(١)، ويأتي تحذير ابن حزم من آفة العناد لما لمسه وشاهده في مناظري عصره ممن يعلم الحق يقينا ويأبى قبوله عنادا وكبرًا، فيقول:" وأما العناد فقد شاهدناه من كل ما رأيناه في المناظرة في الدين وفي المعاملات في الدنيا أكثر من أن يحصى ممن يعلم الحق يقينا ويكابر على خلافه ونعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهدى والعصمة"(٢).

والجدال المذموم ما كان عن عناد ومكابرة يؤديان إلى إنكار الحق الواضح والإصرار على الباطل وهو من صفات الكفار المعاندين الذين يستحقون العذاب لعنادهم وكفرهم.قال تعالى:﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴾(سورة الكهف الآية ٥٦).وقال تعالى:﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (سورة الآية غافر الآية ٥).

٣- الفضول:يقول ابن حزم:"من اشتغل بطلب الفضول وما لا يعنيه أو شك أن يضيع الحق وما يعنيه"(٣).ولذا ينبغي للمرء أن يتحلى بترك الفضول، لاسيما أثناء إجراء أية مناظرة،فذلك أدعى لجلب احترام الناس له.

وللفضول صور عديدة منها: أن يتدخل المرء في مناظرة ليس طرفا فيها. أو الجواب عن الخصم دون رغبته.أو الجواب عمن لم يسأله.فكل ذلك من شأنه أن يجر عليه الملامة، وربما ازدراء الناس له. يؤكد ذلك ابنُ حزم قائلا:" واحذر من أن تجيب نفسك عن خصمك مثل أن تقول له:إن قلت كذا ألزمك كذا، فلعله لا يقول ذلك فتخزى...وتحفَّظ من أن تجيب مَن لم يسألك فتحصل على الخزي ؛ وأقل ذلك أن يعرض عنك، فكيف إن قال لك: لم أسألك. ولا تتكلم على لسان مناظر

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٢٩ ، الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٥/ص٧٤.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، جـ٥ /ص ٧٤.

(٣) ابن حزم، رسالة في حكم من قال: إن أرواح أهل الشقاء معذبة إلي يوم الدين (رسائل ابن حزم) جـ٣ /ص٢٢٩.

غيرك حتى يدع الكلام ويبيح لك مناظره أن تكلمه، فأقل ما في هذا أن يقول لك: أنا غني عن نصرك، ويقول له خصمه: أنا أقويك به مباركا لك فيه فتخزى جدا"(١).

٤. المبحث الثالث: آداب الجدل والمناظرة عند الإمام ابن حزم الأندلسي

إذا كان التأصيل العلمي والمنهجي في الجدال والمناظرة ذا أهمية كبيرة، فإن الجانب السلوكي والتربوي له لا يقل أهمية عنه؛ إذ إن الممارسة الناضجة والتحلي بالآداب، يعكسان الأثر الحي الصادق للعلم الصحيح والمناظرة الفاضلة التي طالما اجتهد معظم علماء الإسلام في تطبيقها، والدعوة إليها بغية إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ولاشك أن الأدب يزين كلَّ شيء يدخل فيه، والتزامه يزين صاحبه، وهو أمر دعا إليه الشرع الحنيف، وتسابق العلماء إلى تأكيده والحض عليه، لاسيما إذا تعلق الأمر بمسائل خلافية تكون مدعاة للجدال والمناظرة، فمن هنا وجب التزام الأدب كلٌّ تجاه الآخر، والارتقاء فوق مواطن الخلاف والإحساس بالمسؤولية، بهدف بلوغ الهدف المنشود. يقول الإمام الجويني في ذلك:"وأحسن شيء في الجدال المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل؛ فإن الأدب في كل شيء حليته!فالأدب في الجدل يزين صاحبَه، وترك الأدب فيه يزرى به ويشينه"(٢)

وقد حرص العلماء – قديما وحديثا – على وضع عدد من الآداب التي ينبغي الالتزام بها قبل وأثناء وبعد المناظرة، وهو ما يكسبها المشروعية والاحترام، ويجعل نتائجَها وما تفضي إليه مقبولةً لدى الجميع، لاسيما أطرافها وكل من شهدها أو سمع بها. "وقد شبه صاحبُ أدبِ الجدل قبل هذا النظر والكلام بالنخل يُؤَبّرُهُ ويقوم عليه، فينال من ثمرته ما لا ينال عند ترك ذلك"(٣).

ويعد الإمام ابنُ حزم واحدا من هؤلاء العلماء، فكما كان حريصا على وضع عدد من القواعد للجدل والمناظرة، كذلك كان حريصا على وضع عدد من الآداب التي ينبغي أن يتحلَّى بها أطرافُ المناظرة.

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق (رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤ / ٣٤٠-٣٤١.

(٢) الإمام الجويني، الكافية في الجدل، ص٣٢٤.

(٣) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، م٢/جـ٧/ص٩تحقيق/عادل بن يوسف العزازي، ط/دار ابن الجوزى بالسعودية، ط١/١٩٩٦م.

وكثيرا ما يشير إلى أن آداب الجدل والمناظرة قد وقف عليها من خلال آيات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى:﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل١٢٥). ولعل التصريح بكلمة (أحسن) في الآية الكريمة تتضمن كل ما ينبغي أن يتحلي به الداعي إلي سبيل ربه من خصال الخير، لاسيما وقت الجدال والمناظرة، فيكون نتاج ذلك ظهور الحق على الباطل، وجعل الحق مقبولا في العقل.يؤكد ذلك ابن حزم - في تعليقه علي هذه الآية الكريمة - قائلا:" فكان تعالى قد أوجبَ الجدالَ في هذه الآية، وعلَّم فيها تعالى جميعَ آداب الجدال كلَّها: من الرفق، والبيان، والتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة القاطعة"(١)."وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت٤٦)، فأمر عز و جل كما ترى بإيجاب المناظرة في رفق وبالإنصاف في الجدال وترك التعسف والبذاء والاستطالة إلا على من بدأ بشيء من ذلك فيعارض حينئذ بما ينبغي"(٢). ويمكن تصنيف تلك الآداب في ثلاثة محاور:

المحور الأول: الآداب التي ينبغي التحلّي بها قبل إجراء المناظرة:ومنها:

(أ) لزوم التقوى وإخلاص النية لله تعالى.

من المعلوم أن من شروط العبادة إخلاص النية لله سبحانه وتعالى، لقوله تعالي:﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة٥). وفي السنة النبوية عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال:(إنما الأعمال بالنيات)(٣).

ومن مظاهر الإخلاص وصدق النية عند النظر في كل العلوم: نظرية كانت أو عملية، نصرة الحق وإنكار الباطل، لاسيما ما كان عن طريق الجدل والمناظرة. يؤكد ذلك أحد العلماء

---

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام جـ١ / ص٢٢.

(٢) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام جـ١ / ص٢٣-٢٤.

(٣) صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ جـ١ /ص٣تحقيق/د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣/١٩٨٧م.

بقوله:"وحق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل"[(١)]. وحرصا من الإمام ابن حزم علي التزام ذلك الأدب والتحلي به لاسيما من طلاب العلم، يتوجه بنصيحته إلي أحدهم قائلا:"واعلم أن نظرك في العلوم على نية إدراك الحقائق في إنكار الباطل ونصر الحق وتعليمه للناس وهدي الجاهل ومعرفة ما تدين به خالقك عز وجل؛ لئلا تعبده على جهل فتخطئ أكثر مما تصيب، من ملة الله تعالى ونحلة الحق، والمذهب المصيب في أداء ما تعبدك به تعالى، ونفعك الناس في أديانهم وأبدانهم وتدبير أمورهم وإنفاذ أحكامهم وسياستهم، وتبصير من يتولى شيئا من ذلك وتعديل طبعة ونصيحته في ذلك، بالحق وتفهيمه وتقبيح القبيح لديه، أفضل عند الله من كل نافلة تتقرب بها إلى الله عز وجل وأعظم أجرا وأعود عليك من كل مال تتكسبه بعد ما لا قوام لجسمك وعيالك إلا به "[(٢)].

فإن فقد العلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شئ يحط من العلم مثل: الرياء؛ وعليه جاءت تحذيرات العلماء من مغبة عدم إخلاص النية في طالب العلم؛ يشير إلي ذلك الإمام ابنُ حزم من خلال نصيحة يوجهها لكل طالب العلم، قائلا له:" إذا حضرت مجلس علم، فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علمًا وأجرًا لا حضور مستغن بما عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العالم أبدًا.فإذا حضرتها على هذه النية، فقد حصَّلتَ خيرًا على كل حال، فإن لم تحضرها على هذه النية فجلوسُك في منزلك أروحُ لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك"[(٣)].

وينبغي - قياسا على ذلك - النظر إلي كل عمل يتقرب به صاحبه إلى الله تعالى، كالذي يجادل لإقرار حق وإبطال باطل، فيلزم نفسَه إخلاصَ النية لله تعالي، بتطهيرها من كل ما يشوبها من آفات كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلمًا لأغراض وأعراض، من جاه،

---

(١) انظر: قول المزني في كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، جـ٢/ص١٣٢.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤ /ص ٣٤٥.النبذة الكافية في أحكام أصول الدين، ص ٤٨-٤٩، تحقيق/أ:محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٨٥م.وقد طبع تحت عنوان:النبذ في أحكام الفقه الظاهري في مصر سنة ١٩٤٠ بتحقيق الشيخ زاهد الكوثري، ثم طبع تحت عنوان:النبذ في أصول الفقه الظاهري بتحقيق/محمد صبحي حسن حلّاق، دار ابن حزم، بيروت، ط٢/١٩٩٩م.والعناوين الثلاثة لمؤلّف واحد، فلا اختلاف بينها في المضمون.

(٣) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١ / ص٤١١.

أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية، أفسدتها، وذهبت بركة العمل الذي يؤديه، ولهذا يتعين حماية النية من شوب الإرادة لغير الله تعالى. يؤكده قولُ الخطيب البغدادي(ت٤٦٢هـ) في ذكر أدب الجدال:"ينبغي للمجادل، أن يقدم تقوى الله تعالى؛ لقوله سبحانه:﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن١٦)...ويخلص النية في جداله، بأن يبتغي به وجهَ الله تعالى...وليكن قصدُه في نظره إيضاحَ الحق، وتثبيته دون المغالبة للخصم"(١).

ويقول الإمام الجويني في المعني نفسه: "والمحافظة على تقوى الله في نظره يغنيه عن كثير من النصيحة، ويبلغه إلى أسهل الطرق في الهداية إلى الحق"(٢).

(ب)الاستضاءة بهدي الشرع والتحلي بآدابه.

مما لاشك فيه أن الاستضاءة بهدي الشرع والتحلي بآدابه يعد ثمرةً من ثمرات التقوى وإخلاص النية لله تعالى، يقع علي عاتق صاحبه عبء الدعوة إلي طريق الحق، لاسيما مَن التزم منهجَ الجدال بالحق وفي الحق وللحق، غير معني بما يلاقيه من عنت ومشقة، متخذا من قواعد الشرع ومبادئه دليلا وهاديا، يهتدي به في طريقه، لاسيما إذا فسدت الضمائر والأنفس وصار التمييز بين الصالح والطالح منها أمرا عسيرا؛ " لذلك فإن الجدل العقلي الذي يأمر به الله لابد أن يرتبط بالحقائق، ولا يمكن أن يحظى بها الفكر الذاتي بدون الاستعانة بالهدي الإلهي، وإلا وقع في المتشابهات وانزلق بعقله إلي هوة الضلالات"(٣).ومن هنا تأتى نصيحة ابن حزم لكل من سلك طريق الدعوة إلي الله تعالي بضرورة التزام نهج الشرع الحنيف، فيقول:"فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق النميمة، ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يرده من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه، فليجعل دينه دليلًا وسراجًا يستضيء به، فحيثما سلك به سلك وحيثما أوقفه وقف، وكفيلًا له بالنظر وزعيمًا بالإصابة وضمانًا للفلج(٤) والخلاص"(٥).

---

(١) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه م٢/جـ٧/ص٤٧:٤٩.

(٢) الإمام الجويني، الكافية في الجدل، ص٣٢٥.

(٣) د/حسن الشرقاوي، الجدل في القرآن، الناشر/منشأة المعارف بالإسكندرية، ط١/١٩٨٦م.

(٤) الفلج: الظفر والفوز. وقد فلج الرجل على خصمه يفلج فلجا.الفلج بالضم.وأفلج الله حجته: قومها وأظهرها.انظر:الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، جـ١ / ٣٣٥، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤/١٩٨٧ م.

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة (رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١ / ص١٧٩.

ومن مظاهر التحلي بآداب الشرع:

١- ضرورة التحلي بالصدق:

لاشك أن من انتصر للحق بجداله، يلزمه التحلي بالصدق؛ لأنه يفرض عليه أن يكون عادلًا فيلزم نفسه أولا بكل ما يطالب به خصمه، منصفًا لخصمه إذا لاح الحق في دعواه. يؤكد ذلك ابنُ حزم في بيان فضيلة الصدق، وكيف أنه مركب من فضيلتي العدل والنجدة؛ فيقول:"الصدق مركب من العدل والنجدة".وفي المقابل نراه يحمل على رذيلة الكذب، محذرا منها، لاسيما من تصدر للدعوة إلي طريق الحق، مطالبا إياه بضرورة التحري مما ينقل، وهو في سبيل التنفير من رذيلة الكذب، يراه أصلا لكل الرذائل، بل جنسا لها وهي أنواع له تندرج تحته؛ يؤكد ذلك قولُه:" لا تجب إلا عن كلام صح عندك عن قائله. لا شيء أقبح من الكذب، وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعًا من أنواعه. فكل كفر كذب. فالكذب جنس والكفر نوع تحته"(١).

والملاحظ أن ابن حزم كان محقا فيما ذهب إليه من أن الكذب هو أصل كل المساوئ صغيرة كانت أو كبيرة، يؤكده حديثُ النبي ﷺ الذي جاء فيه أن الإيمان والكذب لا يجتمعان:(قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانا؟ فقال:نعم. فقيل له أيكون المؤمن بخيلا؟ فقال:نعم. فقيل له أيكون المؤمن كذابا؟ فقال:لا)(٢).وهذا إن دلَّ فإنما يدل علي أن رزيلة الكذب عنها تصدر كلُّ الشرور والمساوئ، ومنها الكفر الذي هو ضد الإيمان، فلا يجتمع في قلب العبد الإيمان والكذب البتة.

٢- تجنب الوشاية والنميمة والكذب.

وهى قاعدة مبنية على ما قبلها وأدب يجب الالتزام به لاسيما من تصدر لجدال قوى الباطل، فمن فقد العمل بها لم يكن أهلا لنصرة الحق، وجلب عليه بغضَ الناس له، فضلا عن استحقاق العقاب في الآخرة. ومن ثم وجب تجنب كل من كان هذا وصفه؛ يؤكده ابنُ حزم محذرا من مخالطة الوشاة والنمَّامين واصفا إيَّاهم بأقبح الأوصاف، ولعله بذلك يعكس ما أصابه منهم طوال حياته، فيقول:"وما في جميع الناس شر من الوشاة، وهم النمامون، وإن النميمة لطبع يدل

---

(١) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١ / ٣٨١.

(٢) الإمام مالك، الموطأ (باب ما جاء في الصدق والكذب)، جـ٢ /٩٩٠تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.

على نتن الأصل، ورداءة الفرع، وفساد الطبع، وخبث النشأة، ولابد لصاحبه من الكذب؛ والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه، وكل نمام كذاب، وما أحببت كذابًا قط، وإني لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيمًا، واكِل أمرَه إلى خالقه عز وجل، وآخذ ما ظهر من أخلاقه حاشا من أعلمه يكذب، فهو عندي ماحٍ لكلِّ محاسنه؛ وذلك لأن كلَّ ذنب فهو يتوب عنه صاحبُه، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه، حاشا الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان. وما رأيت قط ولا أخبرني من رأى كذابًا ترك الكذب ولم يعد إليه، ولا بدأت قط بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطلع له على الكذب، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرض لمتاركته، وهي سمة ما رأيتها قط في أحد إلا وهو مزنون إليه بشرٍّ في نفسه، مغموز عليه لعاهة سوءٍ في ذاته، نعوذ بالله من الخذلان"(١).

٣- حب العدل وأهله وإيثاره على الظلم وأهله:

من يتتبع حديث الإمام ابن حزم عن فضيلة العدل يلاحظ عددا من الأمور من بينها:

- أنه يجعل فضيلة العدل من أفضل نعم الله علي العبد،لاسيما إذا كان مطبوعا عليها، وهو ما يعكس أفضلية الصدق عليها؛ لأن العدل – عنده - جزء منها.

- أن تحليه بهذه الفضيلة أعانه علي كل خير في الدنيا والآخرة، وقمع كل ما لاح له من رذائل.

- أن تحليه بهذه الفضيلة لم يكن عن كسب منه، بل هو مطبوع عليها، وهو ما جعله بعيدا كل البعد – كما يقول – عن معرفة شيء من الرذائل. وهو ما يعد مبالغة منه، لاسيما إذا أراد بذلك العصمة. يؤكد ذلك قولُه:"أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وحبه وعلى الحق وإيثاره، فما استعنت على قمع هذه الطوالح الفاسدة وعلى كل خير في الدين والدنيا إلا بما في قوتي من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى. وأما مَن طُبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فليئيس من أن يصلح نفسَه أو يُقَوِّمَ طباعَه أبدًا، وليعلم أنه لا يفلح في دين ولا في خلق محمود. وأما الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي قط، وكأنني لا حمد لي في تركها لمنافرة جبلتي إياها، والحمد لله رب العالمين "(٢).

---

(١) ابن حزم، طوق الحمامة (رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١ / ١٧٣.

(٢) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس (رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١ / ص٣٥٧-٣٥٨.

(ج) التجرد في طلب الحق :

لاشك أن مَن وقع أسيرا لهواه،صدَّه عن رؤية الحق فضلا عن قبوله، وقد ذمَّه الشرعُ الحنيف، وحذر منه في كثير من آي القرآن الكريم(١)،ومنها قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء١٣٥)،وقال تعالى:﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(القصص٥٠).

وفي التحذير منه، لم يستثنِ الشرعُ أحدًا،لاسيما أصحاب الأمر والنهي الذين تسند إليهم مصالح البلاد والعباد؛وما ذاك إلا لكونه داءا خطيرا يعمى بصيرةَ الإنسان ويحيد به عن اتباع الحق، فيتعدي ضرره ليصيب المجتمع بأسره، فضلا عن استحقاق صاحبه العذاب الشديد في الآخرة.قال تعالى:﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(ص٢٦)وقال تعالى:﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(الجاثية٢٣).

وتنعكس آفة الهوى على مَن كان طرفا في جدال أو مناظرة، فلا تكون لديه قواعد مطردة، أو موازين منضبطة، يعتمد عليها في البحث عن الحق، بل يدور مع هواه حيث دار، وعندئذ لا يمكن الوصول معه إلى حق يذكر، ومن هنا تطلَّب الأمر التحلي بالتجرد في طلب الحق والعمل بمقتضاه. يؤكد ذلك ابنُ حزم قائلا: "لا يدرك الحق من طريق البرهان إلا من صفَّى عقلَه ونفسَه من الشواغل، ونظر من الأقوال كلها نظرا واحدا، واستوت عنده جميع الأقوال، ثم نظر فيها طالبا لما شهدت البراهين الراجعة رجوعا صحيحا غيره مموه ضروريا إلى مقدمات مأخوذة من أوائل العقل والحواس، غير مسامح في شيء من ذلك"(٢). ومن مقتضيات التجرد في طلب الحق:

---

(١) الأعراف، الآية١٧٦، الكهف، الآية٢٨، طه، الآية١٦، الفرقان، الآية٤٣، النجم، الآية٣، النازعات، الآية٤٠.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ٥/ ص٧٤، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤ /ص ٣١٩.

١- طلب الحق والأخذ به أنَّى وُجِد.

ينبغي أن يكون كل طرف من طرفي الجدال والمناظرة طالبا للحق أنَّى وُجِد، مثله في ذلك:" كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق "(١).

وقد درج السلفُ الصالح من علمائنا على التحلي بهذا الخلق الكريم، فالإمام الشافعي يؤكد ذلك بقوله: "ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ ، وما كلمت أحدا قط إلا ولم أبال بَيَّنَ اللّهُ الحقَّ على لساني أو لسانه... وقال: ما ناظرت أحدا إلا على النصيحة... وقال: والله ما ناظرت أحدا فأحببت أن يخطئ "(٢). ويقول ابن حزم ناصحا ومحذرا في آن واحد:"ولا تستوحش مع الحق إلى أحد، فمن كان معه الحق فالخالق تعالى معه"(٣). ويذهب الإمام ابن تيمية - في طلب الحق والأخذ به دون النظر إلي مَن ظهر علي يديه - أبعد من هذا، فيقول:"والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، أمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني فضلًا عن الرافضي قولًا فيه حق أن نتركه، أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق"(٤).

٢- الإقرار بماله وما عليه من الحجج والأدلة والبراهين.

إن التحلي بالموضوعية أدب رفيع يُعلِي من شأن صاحبه، لاسيما من كان في جداله معترفا بما له وما عليه، مقرا لخصمه بما يلوح له من صدق دعواه وقوة أدلته. فلا يجوز أن يُحجب شيئا من الأدلة التي تدعم قول خصمه، فهي صفة ذميمة تعكس اتصاف صاحبها بقلة الإنصاف والورع. ولاشك أن نزاهة كل طرف في الجدال وموضوعيته محورٌ أساسي من محاور المنهج العلمي، وهي التي يُعبّر عنها حديثا : بالأمانة العلمية. يؤكد ذلك ابنُ حزم قائلا:"ولا سبيل إلى أن يقال لأحد فيما ليس مدركا بأول العقل والحواس لِمَ لَم تدر هذا ؟ لكن حتى يثبت عنده بالدلائل ثم حينئذ يلزمه الإقرار بموجبها؛ فعلى من أراد إلزامه الإقرار بأمر ما أن يبينه له ويثبته

---

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين جـ١/٤٤ط/دار المعرفة، بيروت .

(٢) انظر:الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، جـ١ / ٣٦٣ .

(٣) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ / ٣٣٦.

(٤) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، جـ٢/٣٤٢، تحقيق/د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١/ ١٤٠٦هـ.

لديه، إذ الواجب أن لا يصدق أحد بشيء لم يقم عليه دليل وأن يصدق به إذا قام عليه الدليل"[١].

(د) عدم ازدراء الخصم أو التشهير به أو تتبع أخطائه :

وهو أدب يلزم كل طرف تجاه الآخر، فلا أقل من الاحترام الذي يجمع بين المتناظرين، وإن افترقا حول المسألة التي يتناظران حولها، وهو ما يكسبهما احترام نفسيهما قبل احترام الآخرين.ومن هنا جاءت عبارة الإمام ابن حزم تحذر من مغبة ازدراء الخصم أو التشهير به أو تتبع أخطائه؛ فذلك من فعل الأحمق الذي لا يتورع عن فعل ما من شأنه أن يجعل الخلاف حول مسألة ما سببا في تأجيج نار العداوة مع خصمه، فيكون سببا – أيضا – في عدم انصياع الخصم له وإن كان الحق معه، يؤكده قولُه:"ولا تحقر أحدا حتى تعرف ما عنده، فربما فجأك منه ما لم تحتسب، وليس ذلك إلا من فعل أهل النوك الذين لا يحصّلون"[٢].

ويؤكد الإمام الجويني المعني نفسَه قائلا:"ولا يستحقر أحدُهما صاحبَه بما يقع له من الخطأ في مذهب أو دلالة أو غير ذلك؛ فإنه إذا اغتر بخطئه ربما أصاب فيما لا خروج له عنه"[٣].

وقال الشاعر[٤]:

لا يستخفنَّ الفتى بعدوِّه أبدا، وإن كان العدوُّ ضئيلا

إنَّ القذى يؤذي العيونَ أقُّه ولربَّما جرح البعوضُ الفيلا

المحور الثاني: الآداب التي ينبغي التحلي بها أثناء المناظرة. ومنه :

(أ) حسن الاستماع.

مما لاشك فيه أن الاستماع الجيد للخصم أدب يزين صاحبه، لاسيما من كان طرفا في جدال أو مناظرة ؛ لما له من فوائدَ عديدة، منها:

١- الفهم الجيد لآراء وحجج الخصم؛ مما يتيح الرد المناسب عليها.

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ /٣٢١.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٤١.

(٣) الإمام الجويني، الكافية في الجدل، ص٣٢٥.

(٤) أبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب، انظر: الثعالبي، خاص الخاص، ص١٩٨، قدم له/ حسن الأمين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢- إشعار الخصم بجدية المناظرة وأهميتها.

٣- احترام الخصم،وهو ما يقابله بمثله.

ومن مظاهر حسن الاستماع:التزام الهدوء،والإقبال علي الخصم بالوجه،وعدم مقاطعته أثناء كلامه،كما "يحذر رفع الصوت جهرا زائدا علي مقدار الحاجة؛ فإنه يورث الحِدَّة والضجر"(١).

وقد عبَّر عن ذلك أحدُ العلماء في نصيحة لأحد تلامذته جاء فيها:" تَعَلَّم حسنَ الاستماعِ كما تتعلمُ حسنَ الكلامِ. ومن حسنِ الاستماع إمهالُ المتكلمِ حتى ينقضي حديثهُ، وقلة التلفت إلى الجوابِ، والإقبالُ بالوجهِ والنظر إلى المتكلمِ، والوعي لما يقول "(٢).

(ب) التزام العدل.

لما كان العدل رأس كل فضيلة،اقتضى ذلك أن يتحلى به كلُّ من دخل في مناظرة مع خصمه،فإن العدل – في مفهوم الإمام ابن حزم – "يقتضي أن لا يميل لقول على قول إلا ببرهان واضح، ويقتضي له أيضا أن لا يشتغل بالأدنى ويترك الأفضل، فإنه إن فعل هكذا أوشك أن يظفر بما فيه الفوز في الدارين "(٣).

(ج) الرفق وترك التعسف والبذاء:

ينبغي أن يتحلى طرفا المناظرة بالرفق وترك التعسف والبذاء؛ التزاما بهدى الشرع الحنيف، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(العنكبوت٤٦)،وهو ما أكده ابن حزم في تعليقه على هذه الآية الكريمة قائلا:"أمر عز وجل كما ترى بإيجاب المناظرة في رفق، وبالإنصاف في الجدال، وترك التعسف والبذاء والاستطالة إلا على من بدأ بشيء من ذلك فيعارض حينئذ بما ينبغي "(٤).

---

(١) الإمام الجويني، الكافية في الجدل، ص٣١٨.

(٢) ابن المقفع، الأدب الكبير ص١٠٩-١١٠، دراسة وتحقيق/د:فهمي سعد، طانيوس فرنسيس، الناشر/عالم الكتب، بيروت، ط١/١٩٩٨م.

(٣) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ /ص٣٤٧ .

(٤) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٣-٢٤.

المحور الثالث: الآداب التي ينبغي التحلي بها بعد انتهاء المناظرة. ومنها:

(أ) التحلي بالتواضع :

لاشك أن الإعجاب بالنفس والغرور يدفعان الإنسان إلى استخدام كافة الأساليب والوسائل ليحتفظ بما ارتضاه لنفسه من هذه الأمراض والآفات، ويصدانه عن التزام الحق واحترام أهله، وهو ما يجعلان الجدل والمناظرة يخرجان عن الوجهة الصحيحة، وينحرفان إلى طريق المراء والجدال بالباطل، وهو ما صنعه إبليس عندما أُمِرَ مع الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام، فامتنع، يدفعه إلى ذلك الكبر، وهو ما سجله القرآنُ الكريم في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(البقرة ٣٤).

كذلك أشار القرآن الكريم إلي آفة الكبر وما تصنعه في نفس المجادل، فتدفعه إلي الجدال بغير علم ولا حجة، فضلا عن كونها تصده عن التزام طريق الحق، وعن الانصياع إلي براهينه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾(غافر: ٥٦).

ومن ثم شدد ابن حزم على ضرورة التحلي بالتواضع في الجدل والمناظرة اقتداء بهدى الشرع الحنيف، وأن يكون ذلك التواضع سمة مشتركة بين طرفي الجدال. يؤكد ذلك قولُه:"واعلم أن كثيرًا من أهل الحرص على العلم يجدون في القراءة والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظًا، فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقه، فصح أنه موهبة من الله تعالى، فأي مكان للعجب ها هنا ما هذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة من سلبها"(١).

ورغبة منه في وضع علاج لمداواة النفوس وزوال الكبر منها، يري أنه قد يتم من خلال الشخص نفسه، وذلك بعمل مناظرة داخلية بين عقله ونفسه، عندما يقوم العقل بتذكير النفس بعيوبها الكثيرة، فلا يبقى لها فضل يذكر على غيرها، فيورثها ذلك تواضعا. وابن حزم كان صادقا مع نفسه ومع غيره حينما اعترف بأنه كان بداخله عجب شديد بنفسه، فداوى نفسه بهذه الطريقة، فيحكى لنا قيامه بهذه المناظرة الداخلية، قائلا: "ومنها(يقصد: ومن عيوب نفسه) عجب

---

(١) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١/ص٣٨٨.

شديد: فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب كله ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع"(١).

(ب) التحلي بالإنصاف.

لا شك أن التحلي بالإنصاف أدب رفيع يعلى من شأن صاحبه، ولعل هذا هو السر في اهتمام الإسلام به والدعوة إليه، وذلك من خلال الكتاب والسنة:

ففي القرآن الكريم قولُه تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(النساء١٣٥).

وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(المائدة٨).

وفى السنة النبوية ما رَوَاه الْبَزَّار فِي مُسْنَده مِنْ حَدِيث عَمَّار بْن يَاسِر عَنْ النَّبِيّ ﷺ :(ثَلَاث مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَان: الْإِنْصَاف مِنْ نَفْسك، وَبَذْل السَّلَام لِلْعَالَمِ وَالْإِنْفَاق مِنْ الْإِقْتَار)(٢).

وقد التزم العلماء هدي الكتاب والسنة فجعلوه واحدًا من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها طرفا المناظرة، فلا يطالب به طرف دون آخر، بل هو واجب على كل منهما، إذ هو غاية العدل فيها، يؤكد ذلك ابنُ حزم قائلا:"الإنصاف الذي هو غاية العدل في المناظرة وهو أنه من أتى ببرهان ظاهر وجب الانصراف إلى قوله... وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن، فنقول مجدين مقرين إن وجدنا ما هو أهدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن عليه"(٣).

ومن الإنصاف ألا يحتكر الإنسان الحق لنفسه دون خصمه؛ لأن ذلك أدعي لصرفه عن قبول الحق وإن لاح علي يد خصمه،بل لابد أن يعترف بأن الحق ليس حكرا عليه وحده،وهو ما أقر به

---

(١) ابن حزم، المصدر السابق، جـ١/ص٣٥٤.

(٢) انظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود(عدد الأجزاء ١٤)، جـ١٢ /ص ٢٩١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٤١٥هـ.

(٣) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، جـ١/ص٢٣.

ابن حزم، الأمر الذي يعكس تحليه بالإنصاف تجاه خصمه،يؤكد ذلك قوله:"وقد يمكن أن يكون الحق بأيدي خصومنا"(١).

ولكي يُعَوِّد المرء نفسَه على الإنصاف عليه أن يضع نفسَه مكانَ خصمه؛ فعندئذ لن يرضى له إلا بما ترضى به نفسُه، من التماس العذر له إن أخطأ. والابتعاد عن إساءة الظن به، والحذر من مواطن الظلم والاعتساف. يؤكده قولُ ابن حزم:"من أراد الإنصاف فليتوهم نفسَه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسُّفِه"(٢).

ومقابل فضيلة الإنصاف رزيلة اللجاج، وقد حذر منه ابن حزم في بيان الفرق بينهما قائلا:"والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل أو ما فعله الفاعل نصرًا لما نشب فيه، وقد لاح له فساده أو لم يلح له صوابه ولا فساده. وهذا مذموم، وضده الإنصاف"(٣). "ومن الباطل أن تنوب معصيةُ الله تعالى عن طاعته، وأن يجزى الظلم عن العدل، وأن يقوم الباطلُ مقامَ الحق، وأن يغنى العدوان عن الإنصاف"(٤).

وللإنصاف مظاهره التي تؤكده، ومنها:

١- أمانة النقل والحكاية، يؤكده الإمامُ الجويني بقوله:"وعليهما أن ينصفا في حكاية كلٍّ واحد منهما كلام صاحبه من غير زيادة ولا نقصان"(٥).

٢- تقصِّي حجج الخصم، يؤكده قولُ ابن حزم:"فلا بد لك من إنصاف خصمك وتقصِّي حُجَجَه وإلا كنت ظالما. وتحَفَّظ أن تُقَوِّلَ خَصمَك ما لم يقُل فتكذب"(٦).

٣- الاعتراف بصواب قول الخصم وإن غَفَل عنه: قد يظهر الحق على يد الخصم،ولكنه - لسبب ما - غَفَلَ عنه،وعندئذ يتوجب على المناظر الاعتراف له بذلك وعدم التذرع بغفلته عنه، يؤكده قولُ ابن حزم:"ولا تقنع بغفلة خصمك بل انظر في كل ما يمكن أن يصح به قولُه،فإن وجدتَ

---

(١) ابن حزم، الأصول والفروع، جـ١/ص٩٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٨٤م.

(٢) ابن حزم، رسالة في مداواة النفوس(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ١/ص٤٠١.

(٣) ابن حزم، المصدر السابق، جـ١/ص٣٧٨.

(٤) ابن حزم، المحلى، جـ١١/ص١١٢.

(٥) الإمام الجويني، الكافية في الجدل، ص٣٢٥.

(٦) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤/ص٣٣٦.

حقا ببرهان فارجع إليه ولا تتردد،ولا ترض لنفسك ببقاء ساعة آبيا من قبول الحق.وإن وجدت تمويها فبينه ولا تغتر بذهاب خصمك عنه،فلعل غيرَه من أهل مقالته يتفطن لما غاب عنه"(١).

٤- السماح للخصم بإتمام كلامه دون تدخل أو مقاطعة: إن إعطاء الفرصة للخصم بإتمام كلامه تعود بالنفع في المقام الأول علي المناظر؛ لأنه يحقق له أمرين : أحدهما، يعكس تحليه بالإنصاف لخصمه. والآخر، يعطيه الفرصة في التثبت من أدلة خصمه إلي الحد الذي يمكنه من تفنيدها. ولأهميته نرى ابن حزم يشدد علي ضرورة التزامه في الجدل والمناظرة وتحلي طرفيهما به كل تجاه الآخر؛ فيقولُ: "وألا يقطع أحدُهما كلامَ صاحبه حتى يُتِمَّه"(٢).

٥- للخصم الحق في طلب الإقالة(٣) وله ذلك،كما أن له أيضا الحق في استبدال حجة صحيحة بحجة فاسدة.يؤكده قولُ ابن حزم:"فإن أخطأ أحدُهما ثم أراد الإقالة فذلك له،وواجب على الآخر أن يقيله لأن المرء ليس قوله جزءا منه،لكنه واجب عليه ترك الخطأ إذا عرف أنه خطأ، فالمانع من الإقالة ظالم مشغب جاهل.وكذلك إن رأى حجته فاسدة فأراد تركها وأخذ غيرها فذلك له،وهو محسن في ذلك،وليس في ذلك انقطاع في القول المناظر عنه؛ والمانع من ذلك جاهل ضيق الباع من العلم متغفل لخصمه وذلك قبيح جدا"(٤).

ويخبرنا الإمام ابنُ حزم بحكاية تعكس تحلِّيه بالإنصاف تجاه خصمه بعد انتهاء مناظرة جرت بينهما، كان الظفر فيها حليفا لابن حزم، ولكنه بعد مراجعة أدلته وأدلة خصمه وجد الحقَّ في جانب خصمه، فما كان منه إلا الاعتراف الموثق بتفوق خصمه عليه؛ فيقول:" وأخبرك بحكاية لولا رجاؤنا في أن يسهل بها الإنصاف على من لعله ينافره ما ذكرناه، وهي: أني ناظرتُ رجلا من أصحابنا في مسألة فَعَلوتُهُ فيها لبكوء كان في لسانه، وانفصل المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب فوجدت برهانا صحيحا يُبَيِّنُ بطلانَ قولي وصحةَ قول خصمي، وكان معي أحدُ أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس فعرَّفتُه

---

(١) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤/ص٣٣٦.

(٢) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ / ٣٢٦.

(٣) وأما الإقالة فقد صح عن رسول الله ﷺ الحض عليها فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:(من أقال مسلما أقاله الله عثرته يوم القيامة) (السنن لابن ماجه، جـ٢ / ص٧٤١، تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي ط/ دار الفكر، بيروت.انظر:المحلّى لابن حزم، جـ٩ / ص٣.

(٤) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ / ٣٢٦-٣٢٧.

بذلك، ثم رآني قد علَّمت على المكان من الكتاب، فقال لي ما تريد فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان وإعلامه بأنه المحق وأني كنت المبطل وأني راجع إلى قوله. فهجم عليه من ذلك أمر مبهت وقال لي: وتسمح نفسك بهذا! فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى غد"(١).

٦- إفساح المجال أمام الخصم لنصرة قوله واحترام رغبته في ذلك: ينبغي علي المناظر احترام رغبة الخصم في نصرة قوله، وإفساح المجال له لإثبات ذلك إن استطاع إليه سبيلا، وليعلم أن لكل شخص الحق في ذلك، يؤكده قولُ ابن حزم:"واقنع من خصمك بالجد على أن ينصر قولَه ولا تطالبه بالإقرار بالغلبة فليس ذلك من فعال أهل القوة. وهذا باب لا ينتج إلا العداوة وأن يوصف بلؤم الظفر" (٢).

٧- إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، ومنه الاعتراف بالعلم والفضل لأصحابهما، فصاحب هذا الاعتراف أهل للاتصاف بالعدل والإنصاف،يؤكده قولُ ابن حزم:"واعترف لمن هو أعلم منك فهو أزين لك، ولا تبخسه حقه فلن يُنقِصَه تَنَقُّصُكَ إيَّاه بل هو نقصٌ فيك"(٣).

(جـ) ترك التشنيع والتمويه:

معلوم أن عدم الانصياع للحق والإقرار به يشين صاحبَه، يؤكده قولُ ابن حزم:" فمن تمادى بعد هذا الجواب الكافي فإنما غرضه التشنيع فقط والتمويه، وهذان من دلائل العجز عن المناظرة والانقطاع "(٤).

طريقة تحصيل هذه الشروط والتحلي بتلك الآداب:

يحصر الإمام ابن حزم الطريقة التي من خلالها يمكن للمرء تحصيل هذه الشروط وتلك الآداب، في خصلة واحدة ألا وهى ترويض النفس على عدم المبالاة بالمدح أو الذم، وليكن همُّ صاحبها الأول وشغلُه الشاغل طلبَ الحق لا سواه، فبذلك يحقق الخيرَ لنفسه، وهو يؤكد ذلك بقوله:"واعلم أنه لا

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي)جـ٤ /ص٣٣٧- ٣٣٨.

(٢) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤ /ص٣٣٩.

(٣) ابن حزم، المصدر السابق، جـ٤ /ص٣٤١.

(٤) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، جـ٢ /ص ١٣٩.

يقدر أحد على هذه الشروط إلا بخصلة واحدة وهي أن يروض نفسه على قلة المبالاة بمدح الناس له أو ذمهم إياه، ولكن يجعل وكده طلب الحق لنفسه فقط "[1].

٥. الخاتمة

بعد هذه الدراسة لقواعد وآداب الجدل والمناظرة عند ابن حزم الأندلسي يمكن الخروج بعدد من النتائج، من بينها:

أولا: أن الجدل ينقسم بحسب حال طرفيه، وموضوعه والأدلة المستخدمة في البرهنة عليه، وكذا الهدف المنشود منه،إلي قسمين :أحدهما محمود والآخر مذموم.

ثانيًا: أن نهي الشرع وعلمائه عن الجدل، لم يكن علي إطلاقه بل كان خاصا بالمذموم منه.

ثالثا: أن ابن حزم قد التزم نهج الشرع في النهي عن الجدل المذموم دون المحمود منه.

رابعًا: أنه قد أوجب منهج الجدل المحمود؛ لأن ذلك الجدل من قبيل إقامة حجة الله تعالى.ومن قبيل تبليغ رسالات الرسل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

خامسًا: أن العلة وراء اهتمام ابن حزم بالجدل المحمود كونه – لديه - وسيلة من وسائل الدعوة إلي الله تعالى.

سادسًا: أن الجدل، لاسيما المحمود منه، لن يتأتي تحقيق الهدف المنشود منه إلا بإتباع قواعده والتزام آدابه.

سابعًا: أن ابن حزم كان حريصا علي التأكيد أن قواعد الجدل وآدابه قد وقف عليها من خلال الكتاب والسنة، وكذلك منطق العقل.

ثامنًا: أنه كان علي وعي بعيوب النفس،وما تمثله من تهديد لطرفي الجدال، فتخرجهما عن إطار الجدل المحمود إلي المذموم.

تاسعًا: أن إشاراته المتكررة لالتزامه بقواعد الجدل والتخلق بآدابه في جداله مع خصومه، تعكس من جانب اعتدادَه بنفسه، ومن جانب آخر حرصَه علي أن يقدم أنموذج تطبيقي لمن يحذو حذوه في جدال المخالفين والمتشككين لأصول الشرع ومبادئه.

---

(١) ابن حزم، التقريب لحد المنطق(رسائل ابن حزم الأندلسي) جـ٤ /ص٣٤١.

عاشرًا: أن جملة القواعد والآداب التي أشار إليها ابن حزم تقدم صورة مثالية ومشرقة لعلماء الإسلام في جدالهم مع المخالفين لهم، وهو ما يؤكد لزومهم لنهج الشرع الحنيف الذي ألزمهم التحلي بالعدل لاسيما مع أعدائهم،مصداقا لقوله تعالي:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة٨).

******